قراءة معمّقة للنساء السوريات حول الراهن والمستقبل والمفاهيم المتعلقة بهما:

عن الهويّات، الأدوار الجندرية، العنف، العدالة والسلام وسيناريوهات العودة إلى سوريا

«سلسلة إنتاج المعرفة النسويّة في سوريا»

قراءة مُعمّقة للنساء السوريّات حول الرّاهن والمستقبل والمفاهيم المُتعلّقة بهما:
عن الهويّات، الأدوار الجندرية، العنف، العدالة والسلام وسيناريوهات العودة إلى سوريا

«سلسلة إنتاج المعرفة النسويّة في سوريا»

إنتاج البحث: أيار/ مايو 2020
إطلاق البحث: أيلول/سبتمبر 2020

إعداد وكتابة: منظمة النساء الآن/ قسم الأبحاث النسوية التطبيقية

الباحثة الرئيسيّة: نسرين ح.
الباحثات الميدانيّات: ب. ج.
رنا الخلف
سلام
سولنار محمد
منى الخيتي
هلا مطر
يارا
الداعمة النفسيّة: حنان اللكود
التدقيق اللغوي: محمد حج حسين
الهوية البصرية: يسر أفغاني

«الحقوق محفوظة» لا تمنع من الانتفاع الشخصي أو الاقتباس أو الاستفادة العلمية،
بعد أخذ إذن المنظمة المنتجة، بعدها يُمكن نسخه وتصويره

Produced by Women Now for Development
Villa d'Este - Tour Mantoue
75013 Paris 9
www.women-now.org
Not for sale
© Women Now 2020

شكرٌ وإهداءٌ

الشكر لكنّ: يا كلّ النساء اللواتي قابلناهنّ في هذا البحث، لمشاركتكنّ معنا كل هذه الأفكار والمشاعر والتحليلات والتجارب. ولمنحنا هذه الثقة لنكون المساحة التي ستحمل كلماتكنّ وتوصل أصواتكنّ. لقد وسعتنّ إدراكنا كسورياتٍ وسوريين حول كثيرٍ من المعاني والمفاهيم والقراءات المُتعلّقة بالواقع السوري وسياقاته. كما سلطتنّ الضوء على قضايا جذريةٍ، حسّاسةٍ، عميقةٍ تتعلّق بالنساء السوريات وكلّ ما يحيط بهنّ بطريقةٍ لا يُمكن أن تقدّمها وتشرحها إلا النساء.

الشكر لكنّ: أيتها الباحثات الميدانيات العظيمات لإخلاصكنّ وإتقانكنّ لكلّ خطوةٍ في بحثكنّ ومقابلاتكنّ. لتحملكنّ كلّ هذا التعب النفسيّ، وتحويله إلى مشاركةٍ وتفاعلٍ وإيجابيةٍ. لإصراركنّ على إكمال المقابلات في أصعب الظروف: في الحرب، اللجوء، النزوح، الترقبّ. لاعتباركنّ هذا البحث مشروعكنّ الذاتي وجزءاً من قضيتكنّ.

الشكر لك أيتها الداعمة النفسيّة، فقد حوّلتِ تعبنا إلى حياةٍ، وشاركتِ في كلّ خطوةٍ ولحظةٍ إلى آخر يومٍ. لقد جمعتِنا كفريقٍ، واستمعتِ لنا كأفرادٍ، وأبقيتِ ابتسامتكِ وقوّتكِ على الرغم من كلّ التعب الذي استقبلتِه منّا، إضافةً إلى تعبك الشخصيّ.

الشكر لكنّ ولكم في فريق منظمة «النساء الآن» لترجمتكنّ العمل النسوي في الأفعال والمعاملة والأهداف. في توفير هذه المساحة من الحرية في التخطيط والتنفيذ، في الدعم والاهتمام المستمرّ بالتفاصيل المتعلّقة بكلّ من عملَتْ على هذا البحث، الصغيرة منها قبل الكبيرة.

نُهدي هذا البحث باسم منظمة النساء الآن والباحثة الرئيسية والباحثات الميدانيات إلى كلّ إمرأةٍ في سوريا وخارجها. وإلى كلّ من تهتمّ ويهتمّ ويهتمّون بقراءة وفهم وتحليل الواقع السوريّ بمختلف سياقاته من وجهة نظر النساء اللواتي عشن ويعشن هذا الواقع. وإلى كلّ من تهتم ويهتم ويهتمون بالعمل يداً بيدٍ على إنتاج المعرفة النسويّة السوريّة.

المحتوى

كلمة فريق البحث	3
مُلخّص تنفيذي	6
مُقدّمة البحث	9
أسئلة وأهداف البحث	12
منهجيّة البحث	14
منهجيّة العمل البحثيّ	16
فريق البحث	16
معايير الاختيار	17
معلومات كمّية	17
تحدّيات البحث	19
القراءات والتحليلات	22
الفصل الأول: تحليلات النساء لمفهوم الهوّيات وتغيّر الأدوار الجندريّة	23
تعريفات الهوّيات من منظور النساء	26
هويّتي هي أنا	26
لن أنتمي إلى هذا البلد أبداً	27
من أنا من بين كلّ هذا الدّمار	30
عن الهوّية والانتماء..عن خوف الإلغاء	31
غاب الانتماء وكثُرَت الأسئلة	34
الفصل الثاني: مقاربات النساء حول تغيّر الأدوار الجندرية	37
في غياب زوجي أو أبي أو أخي أو هو	38
هكذا تغيّر دوري أثناء الحصار والحرب	41
تغيّرنا للأسوأ	45
نعم تغيّرَتْ أدوار البعض منّا	47
الفصل الثالث: تحليلات النساء للعنف ومواقفهنّ من العسكرة وآثارها	49
تعريفات النساء للعنف	51
في حديث النساء عن تصنيفات العنف	55
مواقف النساء من العسكرة	60
كيف أثّرتْ العسكرة على النساء	63
الفصل الرابع: مفهومَا العدالة والسلام، وقراءة النساء لسيناريوهات العودة إلى سوريا....	67
ماذا تعني العدالة وماذا يعني السلام؟	67
ما الذي يعيق بدء العدالة والسلام في سوريا؟	70
عودة المُهجّرات والمُهجّرين إلى سوريا	72
ماذا قالَتْ النساء اللواتي يعشن في سوريا عن العودة؟	72
ماذا قالَتْ النساء اللواتي يعشن خارج سوريا عن العودة؟	74
اقتراحات من النساء لتحسين أوضاعهنّ	78
استخدامات لاحقة للبحث	79
المُلحقات	80

الباحثة الرئيسيّة

نسرين ح.

كلمة فريق البحث

أعتبر نفسي محظوظةً لكثيرٍ من الأسباب. ولكن سأذكر منها ما يتعلّق بسياق هذا البحث. عمري 38 سنة، وقد دخلتُ المجال الأكاديمي المُتخصّص بالدراسات الجندرية والدراسات الأدبية النقديّة منذ خمس سنواتٍ فقط. اخترتُ الخوض في هذا المجال الأكاديمي اختياراً، لم يفرضه عليّ أحد. فبعد خبرةٍ حياتيّةٍ ذاتيّةٍ، وخبرةٍ عمليةٍ مع العديد من السياقات السورية في السنوات السابقة. بعد أن استطعتُ أن أكون قريبةً من الكثيرات من نساء بلدي سوريا من خلال العمل التطوعيّ والمهنيّ، سياقات اللجوء والنزوح وغير ذلك. بعد كلّ هذا، أردتُ أن أقرأ وأتعمّق في المناهج الأكاديمية التي تصفنا وتُحللنا كأفرادٍ، كنساءٍ، كمجتمعاتٍ، أن أدخل هذا الفضاء الذي لطالما رأيتُه مفصولاً عن فضاء الواقع المُعاش، رغبةً مني في إيجاد، أو حتى خلق، ذلك الرابط بين الفضائين.

أنا محظوظةٌ أولاً، لأنني تمكّنتُ (ولو بالصدفة) من عدم اتباع النمط السائد الذي يُفرَض على العديد منّا أن ندرس الدراسات العليا في سنٍّ مُبكرةٍ من الحياة ثم الخوض في تجاربها. لقد وجدتُ معنىً أعمق بأن أُسقط الفكر الأكاديمي على تجربتي المُعاشة، وأن أناقش ما لا أجده حسّاساً كفايةً، وأن أرفض ما لا يمتُّ للواقع بصلةٍ، وأن أتعلّم الفكر النقدي والكتابة النقديّة في أعلى درجات حساسيته. بالمختصر، وجدتُ نفسي قويّةً.

أنا محظوظةٌ ثانياً، لأنّني اطلعتُ على النهج النسوي والكتابة النسوية لنسويّاتٍ كثيراتٍ من حركاتٍ نسويّةٍ في إفريقيا وآسيا وأوروبا. تلك الكتابات التي كسرتْ أنماط الكتابة والأبحاث الأكاديمية الجامدة، وألهمَتْني وشجعتْني بأن أطوع كتابتي بما يشبهني ويشبه لغتي ومفردات من أكتب لهم/نّ ومعهم/نّ. مما ساعدني أن أعبّر عن شغفي في كتابتي، وأُظهر شغف النساء في حديثهنّ عن كلّ ما يخصهنّ.

أنا محظوظةٌ ثالثاً، لأنّني كنتُ جزءاً من فريقٍ داعمٍ وصادقٍ في أهدافه وقضيّته، وبأن تُتاح لي الفرصة، بل أن يتمّ تشجيعي على استخدام منهجيات كتابةٍ مُتعدّدةٍ (أكاديمية، تحليلية، وصفيّة) في نصٍّ واحدٍ. وبالتجرّؤ على أن أقول بأنّ شكل ولغة هذا البحث في سياقٍ تجريبيٍّ للكتابة بلغةٍ نسويّةٍ سوريّةٍ.

ب.ج: الباحثة الميدانية في إدلب

انا ب.ج من مدينة إدلب، درست بكلية التمريض واشتغلت بعدة مشافي بعدة قرى من محافظة ادلب، واشتغلت مع فريق الطوارئ وفريق الدعم النفسي في منظمة النساء الآن. وحالياً، توقف العمل بسبب الظروف يلي اجبرتني انزح من بلدي في الأشهر الماضية لمكان تاني. بحلم ارجع لبلدي ومو شرط ارجع لمجال عملي المهم ارجع لبلدي وأهلي وأصدقائي ارجع اجتمع فيهم يوماً ما.

رنا الخلف: الباحثة الميدانية في الرقة

انا رنا الخلف من مدينة الرقة، لديّ شهادة معهد حاسوب، أحبّ هذا المجال، ولم أعمل به في السنوات الأخيرة السابقة. ولكن استفدتُ منه كثيراً. أنا ابنة الرقة المدينة المُهمَّشة، ثم المدينة التي بقيَتْ 4 سنوات تلتحف السواد. حاولتُ وأحاول وسوف أبقى أحاول بما أستطيع لأوصل صوت المدينة وصوت بناتها اللواتي لم يفارقهن التهميش أيضاً. أعمل حالياً ومنذ 3 سنوات في مجال المراقبة والتقييم. أحبّ عملي جداً، شغفي في هذا الحياة أولاً أن أكون فاعلة ولي اسم في مدينتي، وثانياً أن تكون لكلّ أنثى في هذه الأرض أهدافٌ ساميةٌ وتسعى لتحقيقها.

سلام: الباحثة الميدانية في لبنان

(فضّلت سلام عدم الكتابة).

سولنار محمد: الباحثة الميدانية في الحسكة

Ez Sulnar Mihemed im, ji parêzgeha Hesekê me.

Min wêjeya Erebî xwendiye, û ji şeş salan ve, di warê ragihadinê de kar dikim.

Pir kêfxweş im ku di vê bizavê de hevpar bûm, jiber ku bawer im ku jin bingeha hemû guhertina ne.

أنا سولنار محمد من محافظة الحسكة، دارسة أدب عربي وبشتغل بالاعلام من 6 سنوات. مبسوطة بهي التجربة الي كنت فيا وسيط لإيصال صوت النساء السوريات، إيماناً مني بأنّ النساء هنّ نواة أيّ تغيير.

منى الخيتي: الباحثة الميدانية في تركيا

ناشطةٌ نسويةٌ ومدنيّة، ومُختصّةٌ بمجال الصيدلة والطبّ المخبريّ. بالنسبة لي، يجب أن يكون إيجاد نظامٍ صحيٍّ عادلٍ للجميع وخاصّةً للمرأة، أحد أهمّ مطالب الحراك النسويّ في سوريا. لذلك أسعى إلى دراسة ماجستير حول كيفيّة إدارة وإعادة تصميم النُظم الصحيّة بشكلٍ حسّاسٍ وعادلٍ.

هلا مطر: الباحثة الميدانية في أوروبا

اسمي هلا مطر، درست ادب انكليزي الفرع يلي ما بحبو ابدا، بس كتير استفدت منو بعدين. انا كتير كنت حب ارسم و رسمت كتير ووقفت بعدين ما بعرف ليش. حاليا ام لطفل ويمكن هيدي اسعد تجربة بحياتي لحد الآن. راح بلّش دراسة ماجستير قريبا. و اشتغلت مع كتير من منظمات المجتمع المدني السوري وغير السوري ب سوريا ولبنان والمانيا وتركيا. كتير أهدافي كتار لهيك صعب اقدر اذكرهن بس الاهم انو تصير هالارض مكان بيوسعنا كلنا و بيوسع ننجح كلنا سوا.

يارا: الباحثة الميدانية في دمشق

كان حلمي بعد الثورة، تأسيس مشاريع إنتاجيّةٍ بسيطةٍ للسيدات المُتضرّرات من كلّ تفاصيل ردة الفعل المجنونة على 2011. والاستعاضة عن المساعدات بوسائل دخلٍ فرديّةٍ، خاصّةً بعد نجاح مشروعين قد بدأتُ بهما. لقد أصبحتْ التغييرات المجتمعية والشخصية، والعلاقات الجديدة أمراً مثيراً لاهتمامي بشكلٍ كبيرٍ جداً، ومن هنا بدأتُ فكرة الأحاديث والنقاش الدائم، وتوثيق التفاصيل، ومحاولة إيصال الصوت الحقيقي لهنّ. لذلك كتبتُ سابقاً بحثاً عنهن وعن التغييرات السلبيّة والايجابيّة عليهن. وشاركتُ في العمل البحثيّ الميدانيّ في هذا البحث. تعلّمتُ منهن الكثير، وما زلتُ أتعلّم، عن الجدّ والصبر والقوّة.

حنان اللكود: الداعمة النفسية

إنّ أجمل شعور في حياتي عندما يسمح لي إنسانٌ ما أن أدخل قلبه وأشاركه مشاعره. فلا نخاف من الحزن عندما نبكي معاً، ولا نفزع من الغضب إذا انفجرنا معاً، كما لا نشبع من المحبّة التي نُحلّق فيها معاً.
مع فريق الباحثات، أكتشف سرّ قوّة المرأة في تجاوز المعاناة، وخلق ابتسامةٍ تمخر عباب الدموع.

«المرأة بسوريا مانها ضعيفة، بس المفاهيم كلها غلط. المرأة المتزوجة هي قائمة بمسؤوليات البيت كلها من الألف إلى الياء، وهاد مو ضعف، هي قوّة. وهاد الشي من زمان، أمي وإمّك كانوا موظّفات وربّونا وفتحوا بيوت. المرأة بسوريا ضعيفة باستقلاليتها، ما عم تقدر تكون مستقلّة ولا توظّف طاقاتها وقوتها بالمكان الصحيح أو على المستوى الشخصي. عم تنجبر تحط قدراتها بأماكن يمكن ما بتناسبها. هي غير قادرة على إنها تكون صاحبة قرار إلا اذا غاب زوجها. ليش بدي استنى ليغيب الذكر من حياتي حتى صير صاحبة قرار؟ مابصير يضل زوجي أو أبي أو أخي وكون صاحبة قرار بنفس الوقت؟» (روان)

ملخّص تنفيذيّ

نقرأ في هذا البحث آراء وتحليلات مجموعةٍ من النساء السوريات من أماكن جغرافيّةٍ وسياقاتٍ وتجارب مختلفةٍ حول مواضيع تلمس وتُشكّل تفاصيل حياتهنّ اليومية. تُخبرنا عن تحليلاتهنّ لهويّاتهنّ ومقارباتهنّ حول تغيّر الأدوار الجندرية. يصفن لنا واقع العنف والعسكرة المَعاش بأشكالٍ متنوّعةٍ، وموضعهنّ فيه، وتأثرهنّ وتأثيرهنّ به. يشاركن معنا قراءاتهنّ لمفاهيم العدالة والسلام في سوريا، والسيناريوهات الخاصة بعودة المهجّرات/ين والنازحات/ين إليها.

إنّ ما شاركَتْه النساء في هذا البحث يعكس كميّة التعب والمعاناة، وكميّة الإصرار والفعل والمشاركة التي تعيشها مجموعةٌ من النساء السوريات ضمن سياقاتهنّ الذاتية والمجتمعية والسياسية والمكانية. كما يعكس مدى التشابه ومدى الاختلاف والتنوّع في التجارب والمفاهيم والأهداف بين نساءٍ سوريات عشن حياة ما قبل الثورة في سوريا وما بعدها في أماكن كثيرة داخل وخارج سوريا؛ ويلفت النظر إلى المساحات الجديدة التي تمّ فتحها، ولو على المستوى الشخصيّ، في نقاشاتٍ وحواراتٍ مُهمّةٍ وعميقةٍ وتفصيليةٍ حول مواضيع تلمس معظم النساء السوريّات في الصميم. مواضيعٌ لم يكن حتى النقاش حولها أو تحليلها على مستوىً فرديٍّ أو جمعيٍّ وارداً قبل الثورة ثم أثناء الحرب في سوريا.

تُدخلنا النساء في هذا البحث إلى أفكارٍ قد طوّرنها وغيّرنها وراقبْنها حول تعريفاتٍ للهويّات فُرِضَتْ عليهنّ أو أحبَبنها ولامستهنّ، ثمّ تأخذنا بعضهنّ إلى ثوراتٍ على الهويّات الجامدة، وصناعة هويّاتٍ تُناسبهنّ، يخترنَها ويشكّلنها في كلّ خطوةٍ وفكرةٍ يقمن بها، وبعدها يناقشن أدوارهنّ والمساحات والطموحات التي كانَت مُتاحةً أو اخترنها قبل الثورة والحرب، وينتقدنَها ويُحلّلنها ويُحلّلن موضعهنّ ضمن نظامٍ أبويٍّ مُوافقٌ عليه مُجتمعياً وسياسياً في سوريا، ويقارنهنّ مقارنةً حسّاسةً للسياق والثقافة والمجتمع، ووضع النساء خلال الثورة والحرب، فيخرجنَ بصياغتهنّ الخاصّة حول ما يُسمى بـ «تغيير الأدوار الجندرية».

نقرأ ونسمع في هذا البحث كلمات وآراء وأصوات نساءٍ سوريات من فئاتٍ عمريةٍ ومواقع مجتمعيةٍ متنوّعةٍ حول وعن مفاهيم كبيرةٍ لا تُنسب عادةً إلى النساء، ولا يكنّ مصدر المعرفة فيها، بل تدور حولهنّ وعنهنّ. هنا سوف تتحدث النساء عن معاني وتأثيرات العنف والعسكرة بعد عام 2011، كشاهداتٍ ومُشارِكاتٍ ومتلقياتٍ وفاعلاتٍ. سنقرأ مصطلحاتٍ وتعاريف جديدةً حتى لغوياً. لقد غِصنَ في أعماق كلّ تفصيلٍ يوميٍّ يعشنه وأفراد عائلاتهنّ ومجتمعاتهنّ، ورسمن لنا أين يكمن العنف، وكيف يتحوّل ويتبدّل، وأشّرن إلى مخاوفهنّ من تفاقمه، وتأثيره عليهنّ وتأثيرهنّ عليه وأفعالهنّ تجاهه.

تكسر النساء في هذا البحث جمود التصنيفات التي اعتدناها مجتمعيّاً ووطنيّاً ودولياً حول علاقة المرأة بالسلام والعدالة. فيقدّمن آراءهنّ وتحليلاتهنّ لسيناريوهات السلام والعدالة بناءً على حيثيّات المشهد السوري، وعلى تطلعاتهنّ الخاصّة. ويُعدن تعريف العدالة والسلام بناءً على تجاربهنّ ومعرفتهنّ وملاحظاتهنّ، ويموضعن ذواتهنّ ضمن هذه السيناريوهات التي تتعلّق بهنّ بشكلٍ شخصيٍّ، وبعلاقتهنّ بالبلد والمستقبل.

قد يكون هذا البحث قد نجح في فتح مساحةٍ بسيطةٍ لأصوات وكلمات الكثيرات من النساء السوريات الغائبة عن الكثير من مفاصل العمل النسويّ السوريّ، وعن التخطيطات والمبادرات والتمثيلات السياسيّة والعمل المدني. ولكن الأهمّ من ذلك، هو إدراكنا[1] للأثر السلبيّ الذي يتركه، وسيتركه، غياب هذه الأصوات والنقاشات على فعاليّة ومصداقية كلّ من يعملن على قضايا تتمحور حول حياة النساء السوريات، وكلّ من يقدن أو يمثّلن الحراك النسويّ السوريّ أو العمل المدنيّ أو السياسيّ. نحنُ من بحاجة سماع هذه الأصوات، نحنُ من نكتب الأبحاث ونقوم بتخطيط المشاريع والمبادرات وتنفيذها، ونفترض أنّنا مشاركاتٍ في حمل همّ المشهد النسويّ السوريّ، في حاجةٍ إلى الخروج من عزلتنا المفروضة علينا بجزءٍ منها، والمرسومة من قِبَلِنا في جزئه الآخر. جميعنا في حاجةٍ للتواصل ولسماع بعضنا البعض من أجل التأسيس لمطالباتٍ بتغييراتٍ جذريّةٍ في واقع النساء السوريّات على جميع الأصعدة. ولجعل النساء السوريات وحياتهنّ وتطلعاتهنّ جزءاً كبيراً لا يتجزّأ عن أيّ قرارٍ يتعلّق بالراهن أو المستقبل في سوريا.

وكي نترجم ذلك في خطواتٍ عمليّةٍ، وبناءً على ما ذكرَتْه النساء في هذا البحث، وعلى ما يمكن أن نضيفه من عملية تعلّمنا المُستمر التي نمضي فيها في مجال العمل المدنيّ والبحثيّ والنسويّ، **سنذكر بعض النقاط التي نوصي بها أنفسنا وكلّ من يقرأ/تقرأ هذا البحث من أفرادٍ وجهاتٍ، والتي نُقدمها كركيزةٍ أساسيةٍ لأيّ عملٍ نسويٍّ سوريٍّ على المدى القريب أو البعيد.**

كنّا كنساءٍ سوريّاتٍ، قبل الثورة والحرب، محصوراتٍ في قنوات تواصلٍ تفرضها علينا القوالب الاجتماعية والسياسية، بل حتى الاقتصادية. الآن، وعلى الرّغم من سوء الحال التي تعيشه كلٌّ منا في ظلّ هذه الحرب وما فرضته، وتفرضه، من أشكال انقطاعٍ غير مسبوقةٍ بيننا، إلاّ أنّها قد تكون فرصةً لنا لفتح قنواتٍ جديدةٍ بين بعضنا البعض نسمع من خلالها أصواتنا، ونفهم عمق التأثير الحاصل على كلٍّ منّا، كي نُحدّد نقطة انطلاقٍ جديدةٍ للعمل النسويّ السوريّ.

1 نون الجماعة هنا وفي كامل البحث تشير إلى فريق عمل منظمة النساء الآن الذي شارك في معظم مراحل البحث، ولا نقصد بها التعميم على أيّ فئةٍ أخرى.

نستطيع القيام بذلك بشكلٍ مُنظَّمٍ ومُحدَّد الأهداف، ولو كان ذلك عن طريق تواصلاتٍ غير مكانيةٍ هادفةٍ واستراتيجيّةٍ (مطبوعات، حملات، تاريخ شفهي، أبحاث، أعمال فنّية، جلسات ومبادرات عن طريق الإنترنت)، أو من خلال تنظيم ودعم مساحات لقاءٍ محليّةٍ ضمن المنطقة الواحدة، نتعلم فيها ونعلّم بعضنا الحوار وسماع الاختلافات وطرق نقاشها للوصول إلى أرضيةٍ جامعةٍ بيننا، وتأسيس تغييرٍ اجتماعيٍّ مُستدامٍ مُتوافقٍ عليه، وإيصال وفرض أصواتنا في التمثيلات والقرارات السياسيّة المحليّة والدوليّة التي لا تأخذ أصواتنا بعين الاعتبار، والتي تُؤثّر على حياتنا ومستقبلنا في الدرجة الأولى.

فلنُعد التفكير بشكلٍ جدّي بمدى تمثيل الجهات العاملة على المشهد النسويّ السوريّ، وخاصّةً خارج سوريا، لواقع النساء السوريات في سياقاتهنّ المختلفة ومطالبهنّ، ولنكسر مبدأ كونيّة المرأة وتشابه احتياجاتها ومتطلباتها أينما كانَتْ، تلك المفاهيم التي تفرضها بعض السياسات الغربية بشكلٍ خاصٍّ، ولنفكّك مبدأ وتعريفات سوريّة المرأة التي تفرضها بعض الجهات النسويّة السوريّة، والكثير من الجهات السياسية والمجتمعية، عند تمثيل المرأة، ولنحلّلها بما يتناسب مع السياقات المتصلة بها، وذلك من خلال:

- القيام بخطواتٍ عمليّةٍ وفعّالةٍ مبنيّةٍ على الحوارات التي تمّ فتحها في هذا البحث حول الهويّات وتغيّر الأدوار الجندرية والعنف والعسكرة والعدالة والسلام، وما يتعلق بها من ملفّاتٍ مهمّةٍ مثل العودة إلى سوريا. وهي خطواتٌ تُظهر وتُترجم أهمية المنظور النسائيّ في تكوين أيّ مفهومٍ أو قرارٍ أو حتى تنفيذ مشروعٍ أو البحث في قضيّةٍ ما تتعلّق بواقعهنّ المُعاش ومستقبلهنّ وبمحيطهنّ بشكلٍ عامٍ. إضافةً إلى القيام بأبحاثٍ أكثر تخصصيّةٍ يتناول كلٌّ منها محوراً واحداً، وذلك للغوص في عمقه، والخروج بنتائج وتحليلاتٍ تُساعد في وضع وتنفيذ خطواتٍ فعّالةٍ.

- قراءة وفهم ومراجعة منظور العديد من النساء السوريات نحو المفاهيم المُتعلّقة بقضّية حقوق النساء ومطالبهنّ بطريقةٍ شاملةٍ لكلّ عناصر المجتمع، وغير إقصائيةٍ للآخر. وعدم قصر العمل النسويّ على فئة المرأة فقط، أو على المرأة كفردٍ فقط، فإنّ نتائج الحرب لا تقع عليها وحدها، بل على جميع أفراد المجتمع ومن كلّ الفئات العمرية. فالوضع العام لن يتحسن بتحسّن وضع المرأة فقط، والعكس صحيح، أي العمل بنهجٍ نسويٍّ شموليٍّ ومُستدامٍ يشمل كلّ القضايا التي تحيط بالنساء، والتي تؤثّر وتتأثر بها، وبالوقت نفسه عدم الوقوع في فخّ تحمّل الجهات النسوية، أو جهات العمل المدنيّ النسويّ، مسؤولية سدّ ثغراتٍ كبيرةٍ تحتاج إلى جهدٍ وتمويلٍ دوليٍّ، مثل إيقاف الحرب، وبدء العدالة الانتقالية، والإفراج عن المعتقلين/ ات، وتحسين وإعادة تفعيل قطاع التعليم والصّحة في كامل سوريا؛ والتي قد تحصر العمل النسويّ المدنيّ وغير المدنيّ في سدّ الحاجات الآنيّة أو المُلحّة، أو القيام بردود أفعالٍ مؤقتةٍ، بل العمل على المناصرة والحشد بشكلٍ جماعيٍّ لتفعيل هذه الملفات، والضغط على جهاتٍ دوليّةٍ أو محليّةٍ تمتلك القدرة والتمويل والإرادة من أجل تنفيذها.

- زيادة إنتاج الأبحاث النسوية النظريّة والتطبيقية فيما يتعلّق بواقع ومستقبل النساء السوريات. بحيث تُغني معرفتنا وتضيء على المواضيع الحسّاسة بتحليلٍ وفهمٍ عميقين، وبحيث تكون أحد المصادر الأساسية لقراءة الاحتياجات والمطالب لأيّة مشاريع أو دراسات أو خططٍ مستقبليةٍ تتعلّق بالنساء وواقعهنّ. إضافةً إلى عدم الاكتفاء بها في خانة البحث فقط، بل ترجمتها إلى أفعالٍ ومشاريع ومُبادراتٍ تتناسب مع السياقات المُختلفة وتموضع المرأة السورية فيها.

- القيام بمبادراتٍ مُنظّمةٍ ومدروسةٍ بين النساء السوريات في الداخل والخارج، تهدف إلى التفريغ النفسيّ الذي تحتاجه كلّ امرأةٍ سوريّةٍ بمستوياتٍ مختلفةٍ. واعتبار الدعم النفسيّ جزءاً أساسياً من أيّ مشروعٍ أو مبادرةٍ يتمّ تخطيطها أو تنفيذها مع النساء السوريات، إنْ كُنّ مشاركاتٍ أو عاملاتٍ. فقد أظهرَتْ العديد من النساء رغبتهنّ وحاجتهنّ إلى التفريغ النفسيّ الذي قد يتمّ عبر التواصل والحديث والاستماع الفعّال، أو بطرقٍ أخرى تتناسب مع الحاجة والمكان، مثل: تأمين فرص عملٍ، إنشاء منتدياتٍ وحواراتٍ، حلقات تضامنٍ...إلخ

مُقدّمة البحث

يأتي هذا البحث كجزءٍ من سلسلة «إنتاج المعرفة النسويّة في سوريا» التي تعمل عليها منظمة «النساء الآن» منذ بدء نشوئها بأشكالٍ مختلفةٍ وبشكلٍ بحثيٍّ منذ عام 2019. يُركّز هذا البحث على واقع بعض النساء السوريات في سياقاتٍ مختلفةٍ داخل وخارج سوريا، وعلى تحليلاتهنّ وقراءاتهنّ لبعض المتغيّرات والمفاهيم المتعلّقة بهنّ، بهدف أن تكون المرأة هي مصدر المعلومة والتحليل الأساسيّ في هذا البحث، وبهدف ترسيخ هذه المنهجيّة النسويّة كمنهجيّة عملٍ وتفكيرٍ تنطلق من المرأة كفاعلةٍ ومحورٍ ومُشارِكةٍ، وليسَتْ كهدفٍ فقط. وذلك من أجل قراءة المتغيّرات بطريقةٍ قريبة من المرأة وواقعها، والتخطيط والتنفيذ المشتركين للخطوات التي ستُبنى على مثل هكذا قراءات.

أثّرتْ الثورة التي بدأتْ في سوريا عام 2011، ومن بعدها الحرب، على تفاصيل الحياة اليومية والنظرة المستقبليّة الخاصّة بكلّ امرأةٍ عاشَتْ هذه المرحلة على اختلاف الجنس والعمر والدور الاجتماعي والطبقة الاقتصادية والانتماء المناطقي والدينيّ والسياسيّ والعرقيّ، أثراً تختلف شدّته وماهيته لدى كلّ إمرأةٍ تبعاً للسياقات التي عاشتْ ضمنها وكانَت جزءاً منها، وتبعاً لدورها وشخصيتها وموقفها ومشاركتها، والعواقب التي اضطرّتْ، وتضطر، للتعامل معها على نحوٍ يوميٍّ، وتبعاً للمساحات التي خلقتْها، أو تلك التي سُمح لها بالتحرك ضمنها، أو التي مُنعتْ عنها بسبب هيكليات النظام الأبويّ، وسلطة الدولة والمجتمع، والسلطات والقوى الجديدة التي أنتجَتْها المرحلة.

إنَّ النساء السوريّات اللواتي آمنّ وشاركن بالثورة، أو ممّن عشن في المناطق والدوائر الثائرة وتفاعلن مع التغيرات، أو ممّن اضطررن للتعامل مع النتائج بحكم سياق المنطقة التي يعشن بها فقط، تعرّضن جميعاً إلى تغيّرات عدّة طرأتْ على نماذج العلاقات المجتمعية والأسريّة، وعلى الجدالات والتحليلات الذاتيّة، وعلاقتهنّ وتموضعهنّ ضمن مفاهيم خاصّةً وعامّةً، تغيّراتٌ في نمط الأدوار الاجتماعية (الجندرية) والمسؤوليات، تغيراتٌ في العلاقة مع المكان والزمان، فمنهنّ من نزحن داخل مناطق في سوريا (ومازلن)، ومنهنّ من اضطررن إلى النزوح إلى دول الجوار (ومازلن). ومنهنّ من لجأن إلى دول أوروبيّة تعترف رسمياً بحقّ اللجوء (ومازلن)، ومنهنّ من بقين في أماكنهنّ ونزح المكان بثوابته وعلاقاته وناسه (ومازال).

تغيّرتْ أهدافهنّ وأحلامهنّ ومخاوفهنّ. تغيّرتْ طريقة تحليلهنّ لذواتهنّ ولعلاقاتهنّ مع الآخرين والأخريات. تغيّرت تعريفاتهنّ للسياسة والدولة والمجتمع الدوليّ، ولمفاهيم كبيرةٍ مثل العدالة والسلام والانتماء والهوية والأمان والاستقرار وحقوق الإنسان. تغيّر عند الكثيرات منهنّ تعريفهنّ للمرأة وقدراتها وحقوقها وواجباتها، إلّا أنّ معظمهنّ لم تُسمع أصواتهنّ، ولم تؤخذ بعين الاعتبار آرائهنّ وتجاربهنّ. معظمهنّ لم تعتبرهنّ المنصات السياسية والدولية والمحلية والمدنية شريكاتٍ، بل ضحايا ومستقبلاتٍ[2].

نظرت الكثير من المنظّمات الدوليّة «الحياديّة» وغير الربحية لمعظمهنّ نظرةً استشراقيةً[3] فوقيةً ومفعمةً بالافتراضات المُسبَقة عن جهل وتخلّف وضعف المرأة في مناطقنا، وحاجتها إلى حضارةٍ ومفاهيم الغرب لإضفاء الطابع الحضاري على حياتها «وتمكينها». وظهر مفهومٌ جديدٌ للاستعمار «الاستعمار المدنيّ للنزاع»، أو كما أسمَتْه الدكتورة زهراء العلي في الورقة البحثيّة المشتركة مع منظمة نساء الآن «المُنظّماتية». وأصبحتْ المرأة السورية، كما هو حال المرأة العراقية والفلسطينية من قبلها ومعظم النساء في الدول التي عانَتْ الاستعمار الغربي سابقاً، والديكتاتوريات المحليّة لاحقاً، ظاهرةً مهمّةً للأبحاث، وموضوعاً جذّاباً لإظهار تغيّر الأدوار الجندرية. وتمّ تناول المرأة في معظم الأبحاث والدراسات[3]، كموضوعٍ وهدفٍ، وليس كذاتٍ إنسانيّةٍ كاملةٍ قادرةً على توصيف الواقع وتحليله، والمطالبة بتغييراتٍ استراتيجيةٍ على جميع المستويات، تتناغم مع السياق والتجربة المُعاشة. إنّ فكرة وهدف هذا البحث قد بدأَتْها مُسبقاً منظمة النساء الآن عام 2019، من خلال الورقة البحثيّة «العدالة الجندرية وإنتاج المعرفة النسويّة في سوريا»[4]، والتي استطعنا فيها، من خلال البحث الميداني المُصغَّر الذي تمّ مع 12 امرأةً داخل وخارج سوريا، ثمّ الورشة التي تمّ عقدها في برلين مع ناشطاتٍ سوريات في المجال المدني والسياسي، رسم تصوّرٍ مبدئيٍّ لمنهجيّة هذا البحث الموسّع الذي يشمل عدداً أكبر من النساء السوريات (57 إمرأة سورية)، والذي بدأنا العمل عليه منذ شهر مايو/ أيار من عام 2019، بمشاركة فريق باحثاتٍ سوريّاتٍ ميدانياتٍ في مناطق عديدةٍ من سوريا ودول النزوح واللجوء.

نريد في هذا البحث كنساءٍ سورياتٍ، باحثاتٍ ومُشاركاتٍ، استعادة هذه المساحة التي تمّ إبعادنا عنها في معظم الأحيان قبل وبعد الثورة.

نريد، باستخدام نهجٍ نسويٍّ يستمدّ أساسياته من السياق النسويّ السوريّ، مدعوماً بما يتطلبه من معرفةٍ وأدواتٍ من سياقاتٍ نسويّةٍ أخرى، إعادة موضعة المرأة السورية كمتحدثةٍ، ومُحلّلةٍ، وواصفةٍ لذاتها وسياقها، ومستقرئةٍ لآمالها ومستقبلها، وفاعلةٍ ومُشاركةٍ به. كما نريد أن نسمع أصوات بعضنا، ونقرأ تحليلاتنا وتغيّراتنا كنساءٍ سورياتٍ فَرَضَتْ علينا الحرب انقطاعاً في التواصل والحوار والتفاعل.

2 ننصح بقراءة مقدمة ورقة مؤتمر "مشاركة النساء في السلام، الأمن والعمليات الانتقالية في العالم العربي: مساهمات باحثات وباحثين في مؤتمر من تنظيم مؤسسة فريدرش ايبرت ومساواة/ مركز دراسات المرأة. عقد في بيروت ، 18-16 تشرين الثاني/ نوفمبر 2017.

3 لا يمكن إنكار وجود العديد من الأبحاث والأوراق والمطبوعات التي أعطت المساحة الكاملة للمرأة السورية في التعبير عن ذاتها وتجربتها وتطلعاتها. إلا أن الإشارة هنا إلى نهج عام من قبل المنظمات والمؤسسات الدولية والعديد من الباحثات .(Objectifying)والباحثين الأكاديميين في اتباع نهج غربي بشيء من المرأة

4 ننصح بالإطلاع على: الورقة البحثية " العدالة الجندرية وإنتاج المعرفة النسوية في سوريا" على موقع منظمة النساء الآن. https://women-now.org/ar/gender-justice-and-feminist-knowledge-production-in-syria

نريد أن نقرأ اختلافاتنا وتشابهاتنا وأسبابها، وأن نفكّر سويّةً بإيجاد أرضيةٍ جامعةٍ لنا قدر الإمكان، لتُرمّم ما مزّقَتْه الحرب، وما مزّقَتْه السلطة السياسيّة والأبويّة في سوريا من قبلها، ولنكمل الحوارات والتحليلات التي وردَتْ هنا، ونوسّع دوائرها لنصل إلى عملٍ نسويٍّ تطبيقيٍّ مُرتبطٍ بالسياق، وممهّدٍ لمشهدٍ مُستقبليٍّ سوريٍّ نسويٍّ.

تندرج جميع الطروحات والتحليلات في هذا البحث، ومن وجهة نظرٍ نسويّةٍ، ضمن إطار «السياسي». حيث نعتبر أنّ كلّ ما يتعلّق بالخاصّ المنسوب إلى المرأة هو سياسيٌّ، وكلّ ما يتعلّق بالفضاء العام غير المنسوب للمرأة هو سياسيٌّ. ونطرح مفهوم ربط الخاصّ بالعام، وتسميتهما ب «السياسة» كنهجٍ بديلٍ عن «السياسة» المطروقة والمتعارف عليها، والتي نتعامل مع انفصالات صنّاعها عن الواقع والإنسان ونتائج هذه الانفصالات بشكلٍ يوميٍّ.

قمنا بتحليل وتصنيف المعلومات التي قدّمَتْها النساء وفق أربعة فصولٍ أساسيّةٍ، بحيث اشتمل كلّ فصلٍ على مجموعةٍ من المفاهيم المترابطة والمتداخلة وتحليلاتها: تحليلات النساء لمفهوم الهوّيات. مقاربات النساء حول تغيّر الأدوار الجندرية. تحليلات النساء للعنف ومواقفهنّ من العسكرة وآثارها. مفهوميّ العدالة والسلام، وقراءات النساء لسيناريوهات العودة إلى سوريا.

تموضعَتْ النساء في هذه الفصول كمُحلّلاتٍ أساسياتٍ للنزاع في سوريا، وكمنتجاتٍ للمعرفة. فجاءَتْ الآراء والمواقف والتحليلات في كلّ فصلٍ وحول كلّ مفهومٍ مُتنوّعةً وغنيّةً، كتنوّع وغنى التجارب التي عاشَتْها النساء، والنقاشات التي قدّمنها.

تدور أسئلة البحث الرئيسية حول آراء مجموعةٍ من النساء السوريات بما يتعلّق بقراءاتهنّ الذاتيّة للتغيّرات السياسيّة في سوريا، وأثرها على حياتهنّ اليومية، والتغيّرات التي طرأتْ على أدوارهنّ الاجتماعية وذواتهنّ. إضافةً إلى قراءتهنّ للعُنف والعسكرة، ومنظورهنّ لمفاهيم كبيرةٍ يتمّ الحديث عنها دائماً في الأوساط الدوليّة بما يتعلّق بالمشهد السوريّ، مثل: السيناريوهات المُتوقَّعة، مفهوم العدالة والسلام بعد الحرب، وقراءتهنّ لموضوع عودة المُهجَّرين والمُهجَّرات، والنازحين والنازحات إلى سوريا.

أسئلة وأهداف البحث

كيف ترى مجموعةٌ من النساء السوريات، حسب منظورهنّ الذاتيّ، أثر الثورة والحرب، وما نتج وينتج عنها، على تعريفاتهنّ الشخصية للهويّات والأدوار الجندريّة؟ كيف ستتطوّر هذه المفاهيم بشكلٍ شخصيٍّ وجمعيٍّ؟ وما مدى استدامتها؟ وماذا يردن؟ وماذا سيفعلنّ؟

كيف يقرأن التغيّرات الاجتماعية والسياسية قبل وبعد عام 2011، وفي السنوات الأخيرة الثلاث، وتأثيرها على المستقبل؟ وكيف يموضعن أنفسهن في جملة هذه التغيرات؟

ماهي تعريفاتهنّ للعنف، وما هي أشكاله وتأثيراته؟ ماذا فعلن أو سيفعلن تجاهه؟ وأين يرين أنفسهن في واقع العسكرة الحالي؟ وما هي مواقفهنّ وأفعالهن ّتجاه العسكرة؟

ماذا يعني لهنّ مفهوم العدالة والسلام ما بعد الحرب في سوريا؟ وكيف يموضعن أنفسهنّ، وما هي أدوارهنّ؟ وكيف يصفن علاقتهنّ بهذه المفاهيم؟

ما هي تصوراتهنّ لأشكال الحلول المُمكنة؟ ماذا يوصين، ويتوقعن، ويتمنين، ويفعلن؟ كيف يرين سوريا في المستقبل القريب والبعيد؟ وكيف ستكون علاقة من تهجّر/تْ ونزح/تْ بسوريا القادمة من منظورهنّ؟

بهدف ترسيخ فكرة المرأة كمصدرٍ رئيسيٍّ لإنتاج المعرفة النسويّة في سوريا، قمنا بطرح هذه الأسئلة من خلال مقابلاتٍ فرديةٍ سرديةٍ مع النساء، ليكنّ فيها المصدر الأساسي للمعلومات والتحليلات، كخطوةٍ أوليةٍ لإعادة دفّة القيادة إلى النساء السوريات، ليكنّ هنّ المتحدثات والمُحلّلات، من خلال مفرداتهنّ وأدواتهن، لأوضاعٍ وتغيّراتٍ تتعلّق مباشرةً بهنّ كنساءٍ وسورياتٍ على جميع الأصعدة.

حاولنا قدر الإمكان خلال ظرف الحرب واللجوء والنزوح هذا، الوصول إلى أكبر عددٍ ممكنٍ من المناطق التي عاشَتْ فيها النساء سياقاتٍ مختلفةٍ أثّرَتْ بشكلٍ مختلفٍ على تحليلاتها لذاتها ولأدوارها الجندرية، وعلاقاتها مع الدوائر والمجتمعات المحيطة بها. وذلك بهدف تقديم قراءاتٍ وتحليلاتٍ تُساهم في فهم مدى الاختلاف والتقاطع، ولخلق أرضيّةٍ وصورةٍ واضحةٍ قدر الإمكان، تُساهم في توجيه جهود العمل النسويّ والمدنيّ السوريّ إلى احتياجات المرأة وقدراتها ومجتمعها في الواقع الراهن والمستقبل.

نريد في هذا البحث، أن تُسمع أصوات النساء السوريات المُشاركات من خلال الكلمات المكتوبة. هذه الأصوات القويّة، الصارخة، والتي للأسف لا تُفتح لها المنابر عادةً على المستوى المحليّ أو الدوليّ. إنّ ما قمنا به في هذا البحث لا يتعدّى خلق هذه المساحة وإيصال هذه الأصوات التي ستعمل هي على تمكيننا وتوسيع إدراكنا في فهم عمق التغييرات على مستوى المرأة السوريّة، في المجتمع والمنطقة، والاستجابة لها بما يتلاءم معها. والتي نأمل أن تُساعد كلّ الساعيات والساعين في الوسط السوريّ النسويّ والمدنيّ والجهات المُهتمّة على ترجمة هذه الأصوات والتحليلات إلى عملٍ وفعلٍ.

منهجيّة البحث

إنَّ هذا البحث بحثٌ نسويٌّ، طُبّقَتْ المبادئ النسويّة فيه على جميع مراحل صناعة البحث. بدءاً من سبب هذا البحث، والأهداف الكامنة خلف أسئلة البحث، وطريقة تصميمه وتنفيذه، والمنهجيّات البحثيّة المُستخدمة، وطريقة تنفيذها. والأهم في كلّ ذلك، هو التأكيد في كلّ خطوةٍ على أنّ البحث ونتائجه صادرٌ من النساء وليس عنهنّ فقط. استخدمنا النظرية المجذّرة (Grounded Theory) كنهجٍ بحثيٍّ لفهم وتحليل السببيّة والارتباطات المتعلّقة ببيانات هذا البحث، والخروج بنتائج مُستَنبَطةٍ من البيانات، وغير مرتبطةٍ بفرضيّاتٍ مُسبقةٍ، وبذلك أقصينا منهجيّات التعميم والاستشراق التي تتناول الواقع السوريّ بمعظم مفرداته ومكوناته وخاصّةً المرأة. قمنا بتطوير منهجيةٍ علائقيةٍ(relational)، تقاطعيّةٍ (Intersectional)، تأخذ بعين الاعتبار عند التحليل جميع العوامل المتفاعلة لإنتاج المعلومة، والسياق الذي يُؤثّر ويتأثّر بهذه المعلومة. **كما اعتبرنا أنَّ المنظور الجندري هو الإطار الأساسي والأداة المُستخدَمة للتحليل والنظر إلى القضايا العديدة التي تطرّقنا والنساء إليها. فالمرأة هي المركز والمصدر، تربطها بالمحيط مجموعةٌ من العلاقات المرئية وغير المرئية، وتُمارس عليها سلطاتٌ واضحةٌ وخفيةٌ. ذلك الجزء الخفيّ وغير المرئيّ هو ما تراه عدسة المنظور الجندري.** فحتى لو تعرّض جميع أفراد المنطقة إلى ظلمٍ وعنفٍ مشتركٍ، على سبيل المثال القصف، فإنّ ما تواجهه المرأة يختلف بتفاصيل كثيرةٍ ومهمّةٍ عمّا يواجهه الرجل[5] كالقدرة على الحركة، أو إمكانية العلاج، أو مكان كلٍّ منهما خلال وقوع القصف، أو المساحات المسموحة والممنوعة لكلّ منهما بالتصرف بعد القصف، أو مسؤوليات المرأة المتوقّعة وكذلك الرجل. مثالٌ آخر، عندما تقول المرأة أنّها كانَت تعمل، والآن هي عاطلةٌ عن العمل، ويقول الرّجل الجملة نفسها، نرى أنَّ الجملتين مُتشابهتين بالمفردات، إلّا أنّ الأسباب الكامنة وراء توقّف كلٍّ منهما عن العمل قد تختلف جملةً وتفصيلاً؛ فقد تكون المرأة قد توقّفَتْ عن العمل لعدم قدرتها على الحركة في منطقةٍ مُسلّحةٍ أو مُتشدّدةٍ، أو لتعرّضها للتحرش أو الاستغلال، أو أنّ زوجها أو أخاها قد منعها. وقد يكون السبب عند الرجل عدم توفّر فرصة عملٍ تتناسب مع مهاراته خلال ظرف الحرب، أو عدم وجود أوراقٍ نظاميّةٍ تسمح له بالعمل.

ومن منظورٍ جندريٍّ تقاطعيٍّ، قد تختلف أسباب التوقّف عن العمل، بين المرأة في إدلب، عن المرأة في دمشق، عن المرأة في الحسكة، عن المرأة في الرّقة، عن المرأة في لبنان أو تركيا أو إحدى الدول الأوروبية. وقد تختلف أسباب التوقف لإمرأتين تعيشان في نفس الحي في حمص مثلاً، تبعاً للعمر، وللمعرفة، والانتماء الدينيّ أو السياسيّ، والعلاقات الاجتماعية أو الظروف الأسرية، أو ربما الحالة النفسية، أو أسباب صحيّة، أو ربما اجتماع بعض أو كلّ هذه العوامل.

5 لا تتبنى الباحثة مفهوم ثنائية الجنس (الرجل والمرأة)، إنما تتبع وتلتزم بما تم نقاشه وجمعه من معلومات خلال البحث التي لم تُذكر فيه أجناس أخرى.

قد يبدو المنظور الجندريّ والنظرية التقاطعية[6] -واللذان يُعدّان ركيزتان في النهج النسويّ- مُعقّدان. وهما بالفعل كذلك، إلّا أنّهما يتعاملان مع موضوع البحث كمصدر معلومةٍ، وفاعلٍ أو ذاتيٍّ (subject) أكثر من كونه شيئاً أو ظاهرةً أو هدفاً (object) [7]، كما أنّهما يدحضان أيّ افتراضاتٍ مُسبقةٍ عن موضوع البحث (قدر الإمكان)، خاصّةً إن كان/ت من تقوم بالبحث قريباً/ةً من السياقات التي تتمّ فيها الدراسة البحثية. ولكن، تتعقّد عملية تحليل وقراءة المعلومات أكثر، خاصّةً في الأبحاث النوعية. إنّما هذا التعقيد يعكس الواقع وعمقه، ويبتعد عن تسطيح وتعميم النتائج.

قاطعنا الحساسية الجندرية والمنظور الجندري في هذا البحث مع منظور وحساسية النزاعات (Conflict sensitivity) في جميع مراحل البحث، حيث يُجرى البحث مع نساءٍ سوريّاتٍ يعشن حالة حرب. كان هذا التقاطع ضرورياً أيضاً من جهة عدم إلحاق الضرر بالباحثات والنساء المُحاوَرات في أيّ مرحلةٍ من البحث، وفي فهم ديناميّات النزاع في كلّ منطقةٍ وسياقٍ بالتقاطع مع الديناميّات الجندريّة.

استخدمنا في هذا البحث، المقابلة النوعيّة (الباحثة- الإمرأة التي تتم مقابلتها) شبه المنظّمة كأداةٍ رئيسيّةٍ في البحث، وبيانات المقابلة كمصدرٍ رئيسيٍّ للبحث. إضافةً إلى مراقبة وتحليل الباحثات الميدانيات لظروف المقابلة والمُشاركة وما يتعلّق بها، وإلى مصادر ثانويةٍ (أوراق أكاديمية، أوراق بحثية، تقارير صادرة من منظمات المجتمع المدني، إلخ) تصبّ في توضيح أو دعم بعض المفاهيم والأفكار المتعلّقة بالبحث.

ركّزَتْ الباحثات في المقابلة على التعرّف على السّيدة المُحاوَرة، بحيث تكون المقابلة أقرب إلى السّرد، وتشمل المعلومات التي تُقدّمها المرأة المُحاوَرة في كلّ ما يتعلّق بحياتها ويومها قبل وبعد 2011، ودورها في المجتمع، وتعريفها لنفسها ولهويّتها، ودوائر ثقتها، وأحلامها ومخاوفها. ثمّ الانتقال إلى أسئلةٍ تتعلّق بعام التغيير 2011، وطريقة استقبال المرأة لهذا العام، ومشاركتها فيه، وآرائها ونظرتها آنذاك، والوضع في السنوات الثلاث الأخيرة، وقراءتها لسيناريوهات المستقبل. إضافةً إلى كيف تُعرّف العنف، وكيف تراه وتحلّله، وما أثره عليها وعلى المجتمع من حولها، وما هو تموضعها ضمن دوائر العنف، ومَن أكثر من تأثّر بالعنف، وكيف يمكن التخفيف منه. كذلك أثر العسكرة، ورأيها بالعسكرة منذ بداية الحراك وحتى الآن، وتأثيرها عليها. ثمّ السّؤال عن تصوّراتها لما يمكن أن يكون عدالةً لها بشكلٍ خاصٍّ، ولسوريا بشكلٍ عامٍّ، وكيف يُمكن حدوث ذلك، ومتى. هل يُمكن أن نصل إلى السلام، وكيف. ماذا يعني لها السلام، وأين هي منه. وكيف تقرأ سيناريوهات العودة إلى سوريا.

تصرّفَتْ الباحثات بحرّيةٍ من ناحية تسلسل الأسئلة، فلم يكن الهدف أن تسرد المرأة المُحاوَرة الأحداث بخطٍّ زمنيٍّ، بل تختلف طريقة السرد بين إمرأة وأخرى. لذلك قامَتْ الباحثات الميدانيات بتسجيل معظم المقابلات بعد موافقة السيّدة[8]. ومن ثم تقوم بتفريغها في المنزل وفق ترميزاتٍ عامّةٍ للمعلومات مُتّفقٌ عليها مُسبقاً، مع إضافة ترميزاتٍ جديدةٍ في حال تمّ طرحها خلال المقابلة. وقد اتفقَتْ الباحثة الرئيسية مع الباحثات الميدانيات أن يكون التفريغ بصيغة المتحدثة، وأن يتم استخدام نفس المفردات التي تحدّثَتْ النساء بها، لما لذلك من دلالاتٍ قد تُساعد في التحليل، ولابقاء السّرد والتحليل بلسان السيدة، وليس اعتبارها ضميراً غائباً.

قمنا بترميز المعلومات بناءً على مواضيع أسئلة البحث، إنّما بتفصيل أكبر. وبما أنّ جملة التقاطعات كبيرةٌ جداً في هذا البحث، فالاختلافات عدّة: الأماكن، القوى المسيطرة، عمر المرأة، عملها، حالتها الاجتماعية...إلخ. فقد أظهرنا في التحليل هذه التقاطعات عند لزوم الأمر، بمعنى أنّه عندما تكون المعلومة مُتأثّرةً بوضع المنطقة الأمنيّ مثلاً، أو الاقتصاديّ (الحصار على سبيل المثال)، سيتم إبراز أو تقسيم التحليلات بالرجوع والتركيز على هذا العامل، وهكذا.

.....

6 هناك مراجع عديدة حول النهج النسوي الأكاديمي في الأبحاث. ونذكر منها الكتاب التالي (المرجع باللغة الانكليزية)
Harding, Sara: "The Science Question in Feminism". 1968

7 ننصح بقراءة مقال بعنوان "التضامن النسوي" لسارة سالم والمنشور في مجلة الكترونية باسم "اختيار". تتحدث فيه الكاتبة بتفصيل عن معنى وأهمية النظرية التقاطعية في النهج والفكر النسوي. المقال باللغة العربية ويمكن إيجاده على الرابط التالي:
https://www.ikhtyar.org/wp-content/uploads/2015/03/011.pdf

8 الرجاء الاطلاع على الملحق رقم 1 (ورقة الموافقة)

فريق البحث

تكوّن فريق البحث من الباحثة الرئيسية، الباحثات الميدانيات والداعمة النفسية. جميع عضوات فريق البحث هنّ نساءٌ سوريات. قامَتْ الباحثة الرئيسية بمساعدة فريق عمل منظمة النساء الآن باختيار الباحثات الميدانيات[9]، ثمّ قامَتْ بتدريب 7 باحثاتٍ ميدانياتٍ في المناطق التالية:

- داخل سوريا: الحسكة، الرقة، إدلب، دمشق.
- خارج سوريا (دول جوار سوريا): تركيا (غازي عنتاب)، لبنان (منطقة البقاع).
- خارج سوريا في الدول الأوروبية: ألمانيا.

إنّ وجود باحثاتٍ ميدانياتٍ قد أعطى الغنى والعمق الحقيقي لهذا البحث. حيث أنّ مقابلة النساء بشكلٍ مباشرٍ، إضافةً إلى خبرة الباحثات الميدانيات الكبيرة بسياق المنطقة، وقدرتهنّ على تسجيل مراقباتهنّ وملاحظاتهنّ الخاصّة قد لعب الدور الأكبر في الحصول على معلوماتٍ دقيقةٍ، وعلى جعل النساء التي تمّت مقابلتهنّ قادراتٍ على سرد أرائهنّ وقصصهنّ بارتياح.

قامَتْ الباحثات باختيار النساء من الدوائر القريبة لهنّ، مع مراعاة معايير الاختيار التي سنذكرها لاحقاً. والسبب في ذلك هو حرصنا على أن يكون عامل الثقة بين المُحاوِرة والمحاوَرة موجوداً بشكلٍ حقيقيٍّ، وأن توافق المحاوَرة على هذه المقابلة بناءً على رغبتها في الحديث وإيصال صوتها.

منهجيّة العمل البحثي

ثمّ كان تسلسل العمل كما يلي:

- بعد التدريب وإجراء المقابلات التجريبيّة بين الباحثات، قامَتْ كلّ باحثةٍ باقتراح مجموعةٍ من السيّدات، ومناقشة أسباب الاختيار مع الباحثة الرئيسية، وتعديلها عند اللزوم بحيث تتمّ تغطية التنوعات في المنطقة ومعايير الاختيار.
- قامَتْ كلّ باحثةٍ بإجراء عددٍ من المقابلات مع السيّدات في منطقتها، ممن قدّمن الموافقة وأبدين رغبتهنّ في المشاركة بهذا البحث. كانَت معظم المقابلات في الأماكن التي اختارَتْها السيدات. قامَتْ كلّ باحثةٍ قبل كلّ مقابلةٍ بقراءة معلوماتٍ حول البحث وأهدافه، وطريقة تعامل منظمة النساء الآن مع البيانات، وكيفيّة تخزينها ومشاركتها، وحقوق السيّدة المشاركة، وطريقة المقابلة. وعند الإمكان، قامَتْ السيدة المُشارِكة بالتوقيع على الورقة[10]، ثمّ قامَتْ الباحثة بتسجيل المقابلة.

9 ثلاث باحثات ميدانيات كنّ من النساء التي تمت مقابلتهنّ في البحث الميداني المذكور في ورقة "العدالة الجندرية وإنتاج المعرفة النسوية في سوريا"، حيث رأينا أنه من الأفضل أن تكون بعض الباحثات الميدانيات، ممن تمت مقابلتهنّ وممن لديهن كفاءات كباحثات ميدانيات. هذا يعطي إغناء أكبر لهذه التجربة البحثية، ويضع بعض الباحثات الميدانيات في موقعين مختلفين، سابقاً كمشاركة ولاحقاً كباحثة.

10 رفضت بعض السيدات ممّن تمت مقابلتهنّ التوقيع على الورقة بسبب مخاوف أمنيّة معينة ولأسباب شخصيّة، وفضلن الموافقة الشفهية.

- بعد ذلك، قامَتْ كلّ باحثةٍ بتفريغ المقابلات في ملفٍّ مُعدٍّ سابقاً من قِبَل الباحثة الرئيسيّة لترميز وتصنيف البيانات. وكان للباحثات الميدانيات كامل الحرية في إضافة ترميزاتٍ ومواضيع جديدةٍ، في حال وجدنَها في المقابلات.
- بعد الانتهاء من المقابلات، قامَتْ كلّ باحثةٍ بكتابة تقريرٍ تصف فيه تجربتها، ورأيها الشخصي، واكتشافاتها واستنتاجاتها، والسّياق العام الذي تمّتْ فيه المقابلات.

  قامَتْ الباحثة الرئيسية بتجميع البيانات وقراءتها بشكلٍ تفصيليٍّ، وإعادة ترميزها بناءً على الموضوعات المُستَنْتَجة والتقاطعات فيما بينها، ثمّ كتابة البحث النهائي وفق مراحلٍ.
- **من الجدير بالذّكر، أنّ الداعمة النفسيّة قد لعبَتْ الدور الأكبر في إتمام هذا البحث، وفي الحفاظ على الصحّة النفسيّة لجميع الباحثات. وذلك من خلال تواصلها الدائم الفرديّ والجماعيّ مع الباحثات، وحثّها كلّ باحثةٍ على التفريغ النفسيّ بعد كلّ مقابلةٍ تقريباً.**

معايير الاختيار

لا نهدف في هذا البحث إلى إعطاء صورةٍ شاملةٍ عن وضع النساء السوريات، وإنّما لقطاتٌ عن حياةٍ، وتجاربٍ، وأفكارٍ، وتحليلاتٍ، وواقعٍ، وتصوّرات مجموعةٍ من النساء السوريات ممّن لا تتوّفر لهنّ عادةً منابر كتابيّةٍ، سياسيةٍ أو إعلاميةٍ للتعبير عن ذواتهنّ.

لذلك، كانَتْ الاختيارات من مجموعةٍ من النساء السوريّات[11]، من مناطق جيوسياسيةٍ مُختلفةٍ في سوريا وخارج سوريا. نساءٌ يعشن في ظروفٍ مختلفةٍ، ومن فئاتٍ عمريةٍ مختلفةٍ، وحالاتٍ اجتماعيةٍ ومستوياتٍ تعليميةٍ مختلفةٍ. بالنسبة لنا، إنّ أيّ تجربةٍ لأيّ امرأةٍ عاشَتْ في سوريا قبل وبعد عام 2011، أو اضطرَّتْ للنزوح واللجوء بعد هذا العام، هي تجربةٌ مهمّةٌ وغنيّةٌ، إنّما حاولنا أن يشمل التنوع عدّة عوامل تؤثّر مباشرةً بالتجارب والآراء: مثل المناطق ذات السياقات المختلفة خلال الثورة والحرب، والفئات العمرية، والحالات الاجتماعية، والنساء من بعض الانتماءات العرقية التي تعرّضَتْ لظروفٍ مختلفةٍ (النساء الكرديات مثلاً). أمّا بالنسبة للمستوى التعليمي، أو الوظيفة، أو الانتماء الدينيّ، فلم نأخذها كمعايير اختيارٍ أساسيةٍ، بل معايير يُفضّل أن تتمّ مراعاتها عندما ترى الباحثة الميدانية ضرورة ذلك.

معلومات كميّة

سنورد فيما يلي بعض المعلومات الكميّة التي من شأنها أن تُعطي تصوّراً أوضح حول السيدات اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ. أمّا باقي المعلومات، فسيتمّ ذكرها بشكلٍ فرديٍّ خلال فقرة القراءات والتحليلات، وذلك عند الضرورة.

11 نقصد بالنساء: كل من تعرّف نفسها على أنها إمرأة. ونقصد بالسوريات: كل من عشن على الأراضي السورية قبل وبعد عام 2011 ولا نخص حاملات الجنسية السورية فقط.

الفئات العمرية:

فئة العشرينات: 11.

فئة الثلاثينات: 28.

فئة الأربعينات: 10.

فئة الخمسينات وما فوق: 8.

الحالة الاجتماعية:

سنورد الحالات الاجتماعية بنفس الطريقة التي ذكرتْها النساء. علماً أنّ هناك العديد من المتزوجات ممن اختفَى أو اُعتقل أزواجهنّ، أو ماتوا، إلّا أنّ بعضهنّ فضّلن ذكر وصف متزوجةٍ كحالةٍ اجتماعيةٍ.

الحالة الاجتماعية	عازبة	مخطوبة	مرتبطة	أرملة	مطلقة	متزوجة
	20	1	3	2	3	28

الأماكن:

قد تكون خريطة الأماكن هي الأكثر تعقيداً، إلّا أنّها تُلقي الضوء على واقع الشعب السوريّ، وخاصّةً النساء. وسنعرض في الشكل التالي الأماكن التي عاشَتْ فيها النساء قبل النزوح، والتي تعيش فيها الآن. ولتخفيف التعقيد لن نذكر المناطق التي انتقلن إليها بين الموطن الأصلي والمكان الحالي، بل المكان في سوريا فقط قبل الثورة والحرب، والمكان الحالي الذي كانَتْ به النساء عند إجراء المقابلات.

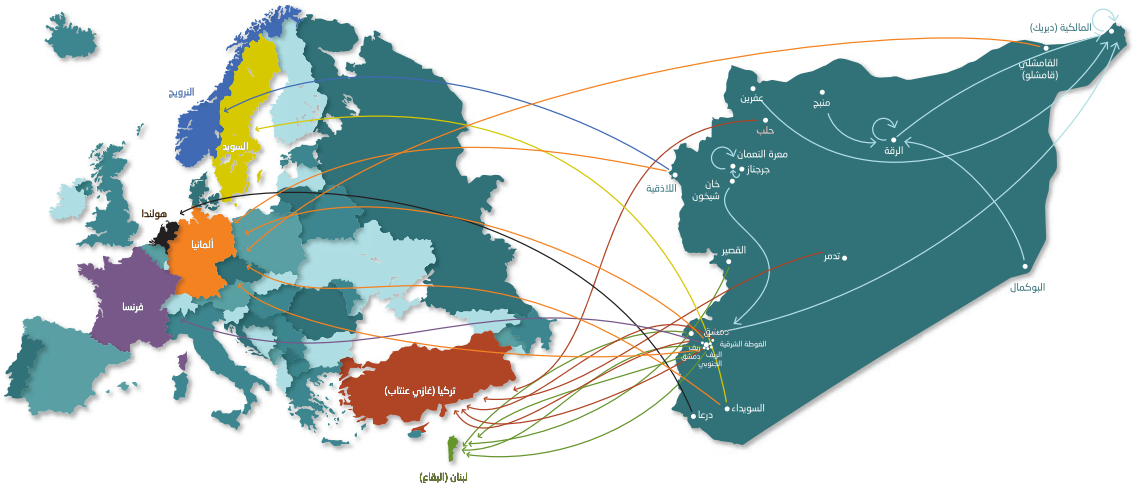

(2) نساء انتقلن* من دمشق إلى المالكية (ديريك)/ الحسكة
(3) نساء بقين في المالكية (ديريك)/ الحسكة
(1) نساء انتقلن من عفرين إلى المالكية (ديريك)/ الحسكة
(1) نساء انتقلن من الرقة إلى المالكية (ديريك)/ الحسكة
(5) نساء بقين في الرقة (المدينة)
(1) نساء انتقلن من البوكمال إلى الرقة (المدينة)
(1) نساء انتقلن من منبج/ حلب إلى الرقة (المدينة)
(3) نساء بقين في دمشق (المدينة)
(1) نساء انتقلن من جرمانا إلى دمشق (المدينة)
(1) نساء انتقلن من خان شيخون/ إدلب إلى دمشق (المدينة)
(1) نساء انتقلن من داريا إلى دمشق (المدينة)
(1) نساء انتقلن من زملكا إلى دمشق (المدينة)
(6) نساء بقين في معرة النعمان/ إدلب
(1) نساء انتقلن من جرجناز إلى معرة النعمان/ إدلب

(2) نساء انتقلن من ريف دمشق إلى تركيا (غازي عنتاب)
(3) نساء انتقلن من الفوطة الشرقية إلى تركيا (غازي عنتاب)
(1) نساء انتقلن من تدمر إلى تركيا (غازي عنتاب)
(2) نساء انتقلن من حلب إلى تركيا (غازي عنتاب)
(1) نساء انتقلن من دمشق إلى تركيا (غازي عنتاب)
(4) نساء انتقلن من داريا إلى لبنان (البقاع)
(1) نساء انتقلن من الزبداني إلى لبنان (البقاع)
(2) نساء انتقلن من القصير إلى لبنان (البقاع)
(1) نساء انتقلن من ريف دمشق الجنوبي إلى لبنان (البقاع)
(1) نساء انتقلن من دمشق إلى لبنان (البقاع)

(1) نساء انتقلن من دمشق إلى ألمانيا
(3) نساء انتقلن من اللاذقية إلى ألمانيا
(1) نساء انتقلن من السويداء إلى ألمانيا
(1) نساء انتقلن من القامشلي (قامشلو) إلى ألمانيا
(1) نساء انتقلن من داريا إلى ألمانيا
(1) نساء انتقلن من دمشق إلى فرنسا
(1) نساء انتقلن من السويداء إلى السويد
(1) نساء انتقلن من اللاذقية إلى النرويج
(1) نساء انتقلن من درعا إلى هولندا

* نقصد بالفعل "انتقلن" نزحن، تهجّرن أو لجأن

تحديات البحث

لقد واجهنا في هذا البحث الكثير من التّحديات التي يتعلّق بعضها بالمشهد السوري العام، بما يتضمنّه من حربٍ وقصفٍ ونزوحٍ ولجوءٍ، وأوضاعٍ اقتصاديّةٍ وأمنيّةٍ وسياسيّةٍ صعبةٍ جداً. ويتعلّق بعضها الآخر بأوضاع كلّ من شاركن في هذا البحث، وظروفهنّ وظروف مناطقهنّ. إضافةً إلى التحدّيات المتعلّقة بالعمل النسويّ في أوضاعٍ تتّسم بعدم الاستقرار وصعوبة التخطيط والتنفيذ المُستدام في فترةٍ عنوانها الرئيسيّ هو الحرب.

ونريد أن نركّز هنا على التحدّيات المباشرة التي واجهناها في صناعة هذا البحث. حيث أنّ التحدّيات العامّة المتعلّقة بوضع النزاع والحرب، وصعوبة العمل النسويّ خلالهما، وظروف العمل النسويّ السوريّ بشكلٍ عامٍّ، تحتاج إلى بحثٍ مُخصّصٍ لها. إضافةً إلى أنّ جملة هذه التحدّيات قد تمّ ذكرها بالتفصيل وبالعام خلال صفحات هذا البحث.

تحديّات مكانيّة

لقد شكّلت سياسات المكان النابعة من نتائج النزاع، التحدّي الأكبر في هذا البحث. لقد كنّا ثمان باحثاتٍ، عملنَا وتدربنا وتناقشنا ضمن غرفٍ افتراضيّةٍ. كان اللقاء مُستحيلاً بين الباحثات ضمن المناطق السورية، وكذلك الأمر بينهنّ وبين الباحثات في دول اللجوء والنزوح. فكانَتْ جميع مراحل التخطيط والتدريب والنقاش والمراجعات افتراضيّةً، وليست على شكل لقاءاتٍ فيزيائيّةٍ. حتى أنّ الدّعم النفسيّ كان بهذه الطريقة. إنّ لهذا البعد تأثيره الكبير في عملٍ نحتاج فيه جميعنا أن نرى ونتفاعل مع بعضنا البعض، أن نحسّ ببعضنا البعض، وأن نأخذ مساحتنا في النقاش والعمل.

إضافةً إلى ذلك، لقد صعُب علينا أن نتواصل مع باحثاتٍ ميدانيّاتٍ من مناطق كثيرةٍ في سوريا، مثل: دير الزور، حمص، درعا، السويداء، القنيطرة، حلب، القامشلي، البوكمال، اللاذقية، طرطوس. وذلك لصعوباتٍ تتعلّق بالمكان والأوضاع الأمنية والتعقيدات اللوجستية، وكان البديل غير الكافِ بالطّبع، هو الاعتماد على مقابلة سيّداتٍ كنّ يعشن في بعض هذه المناطق، ونزحن أو لجأن إلى أماكن أخرى.

تحديّات أمنية

تعرّضَتْ معظم الباحثات إلى مخاطر أمنيّةٍ حاولنا قدر الإمكان التخفيف منها، ولو اضطرنا الأمر إلى إيقاف البحث أحياناً بشكلٍ كاملٍ. فإنّ الحساسية للنزاع وظروفه كان من أهمّ المعايير التي نظرنا إليها في كلّ خطوةٍ قمنا بها. ولكن تتعلّق مثل هذه الظروف بسياق المكان الذي تعيشه كلّ باحثةٍ، ومع كلّ الإجراءات التي اتخذناها سويةً للتخفيف أو منع أيّ خطرٍ قد يصيب الباحثة أو النساء، بقيَتْ هناك عواملٌ خارج سيطرتنا.

تعرّضَتْ الباحثة في إدلب إلى حالاتٍ وظروفٍ أمنيّةٍ صعبةٍ نتيجة القصف المستمرّ على منطقتها والمناطق المجاورة. وفي معظم الوقت، أعاقها هذا الأمر حتى عن قدرتها على التواصل معنا عن طريق الإنترنت. وقد أجرَتْ مقابلتين في الملجأ، أمّا باقي المقابلات، فقد أجرَتْها في أوضاعٍ أمنيّةٍ لا تقلّ صعوبةً. على الرغم من طلبنا المباشر منها التوقّف عن إجراء أيّة مقابلة، والاهتمام بسلامتها الشخصية، إلّا أنّها رفضَتْ ذلك في معظم الأحيان، ووافقَتْ على تأجيل بعض المقابلات فقط. ومنذ الشهر الأول من سنة 2020، وهي تنزح من مكانٍ إلى آخر للوصول إلى أيّ رقعةٍ قد ينساها صنّاع الحرب ولو مؤقتاً.

كذلك الأمر بالنسبة للباحثة في منطقة الحسكة، فقد تعرّضَتْ لظروفٍ قاسيةٍ نتيجة الهجوم التركيّ العسكريّ الذي تمّ على المنطقة في تشرين الأول/أكتوبر من عام 2019. فمن خطر القصف والاشتباكات إلى رعب النزوح، إلى رؤية الموت ونزوح المدنيين والمدنيات، إلى ترقّب المجهول. وأوّل ما حرصَتْ عليه الباحثة هو تسليم جميع المقابلات وإتمام عملها، على الرغم من طلب الجميع منها التوقّف عن ذلك.

ولم تَسلم الباحثة في الرّقة من ظروفٍ مُماثلةٍ، إنّما مُخفّفة. فترقّب انسحاب القوات الأمريكية من المنطقة، والنتائج التي ستبُنى على هذا الانسحاب، والتخمينات المتعلّقة بالقوى البديلة التي ستسيطر على المنطقة في حال انتهى وجود قوّات سوريا الديمقراطية، كلّ هذا وضع الباحثة في حالة استنفارٍ وترقّبٍ دائمين، وقامَتْ كزميلاتها بتسليم جميع الملفّات وإكمالها، وحذف أيّة معلومات متعلّقة بالبحث لديها.

وعاشَتْ الباحثة في تركيا في قلقٍ بسبب القوانين والأفعال التي اتخذَتْها الحكومة التركية من ترحيلٍ لكثيرٍ من السوريين والسوريات إلى داخل سوريا، والذي بدأ قبل أشهرٍ من الهجوم التركيّ العسكريّ على المناطق الشرق شمالية في سوريا في تشرين الأول/أكتوبر عام 2019.

ولم تسلم الباحثة في لبنان من الشعور بالخطر الأمني والخوف والقلق. فهي مُهدّدةٌ دائماً في لبنان بالترحيل إلى سوريا، أو تغيير بعض القوانين الذي سيجعل من حركتها أصعب ممّا كانتْ عليه.

أمّا الباحثة في دمشق، فلم نستطع حتى من ضمّها إلى مجموعات التواصل الجماعيّة، خوفاً عليها من أيّ مراقبةٍ تتعرّض لها من قِبَل قوّات أمن النظام السوري، وقد تلقّتْ تدريباً منفرداً، ولم تتعرّف على أيٍّ من زميلاتها في العمل، للأسف.

قد تكون الباحثات في أوروبا الأوفر حظّاً في التمتع بمزيدٍ من الأمان والاستقرار، إلا أنّ المخاوف الأمنية تتعدّى المكان الجغرافي. فبعضهنّ غير قادراتٍ على ذكر أسمائهنّ الحقيقية خوفاً من أيّ تبعياتٍ قد تطالهنّ أو أهلهنّ في سوريا، حاليّاً أو في المستقبل المنظور.

تحدّيات نفسية

إنّ قيام الباحثات الميدانيّات بهذه المقابلات بما تحمله من تعبٍ وغضبٍ وحزنٍ ويأسٍ في أجزاءٍ كبيرةٍ منها، كان له أثرٌ مباشرٌ عليهنّ. فهنّ أيضاً نساءٌ سوريّاتٌ مُهجّراتٌ وفاقداتٌ وثائراتٌ ومعانياتٌ ومواجهاتٌ لكلّ ظروف الحرب. إضافةً إلى الظروف الاستثنائية التي مررن بها خلال البحث، والتي ذكرناها في الفقرة السابقة، وأثّرَتْ نفسياً على جميع الباحثات. إلّا أنّ تواجد الداعمة النفسية كان له أثرٌ إيجابيٌّ كبيرٌ جداً. علماً أنّ الداعمة النفسية ذاتها واجهَتْ كلّ ما ذكرناه سابقاً، ولكنّها كانَتْ قادرةً على استيعاب كلّ المشاعر السلبيّة وتفريغها. إضافةً إلى الدّعم المُباشر وغير المُباشر الذي قدّمَتْه منظمة النساء الآن لجميع العاملات على هذا البحث.

تحدّيات تتعلق بالنساء اللواتي قابلناهنّ

واجهَتْ الباحثات الكثير من الصعوبات فيما يتعلّق بالتواصل وإجراء المقابلات في جميع المناطق. يعود مصدر بعض هذه الصعوبات إلى قلق بعض السيّدات من ذكر معلوماتٍ شخصيّةٍ أو تسجيلها، على الرغم من علاقة الثقة الموجودة سابقاً مع الباحثة، وعلى الرغم من ورقة الموافقة التي نشرح فيها السرّية، وعدم المشاركة مع أيّ جهةٍ تتعدى الباحثات والمنظمة الرّاعية. وبالطبع، هذه التخوّفات مفهومةٌ، فيعود سببها إلى الخوف من وصول المعلومات بشكلٍ أو بآخرٍ إلى جهات السلطة من أيّ نوعٍ في المناطق داخل أو خارج سوريا، وتأثيرها على السيّدات بشكلٍ مُباشرٍ أو من تبقى من أفراد العائلة، وإلى الخوف المُتجذّر، والذي يحوم حول أيّ نوعٍ من البوح. فيما واجهَتْ أيضاً بعض الباحثات إلغاءً للمقابلات، سببه معرفة الزوج بها، ومنعه للسيّدة من تنفيذ المقابلة بعد موافقتها عليها. لذلك، قمنا باستخدام أسماءٍ وهميّةٍ لجميع النساء ممّن جرَتْ مقابلتهنّ، وحاولنا قدر الإمكان تمويه بعض التفاصيل التي قد تدلّ على شخصيّاتٍ مُعيّنةٍ، حتى ولو ضمن الوسط المحيط بها في مكان إقامتها.

بالإضافة إلى تحديّاتٍ أخرى تتعلّق بنوع المشاعر والذكريات التي تطرّقَتْ لها السيدات، مما أتعب بعضهنّ نفسيّاً، فترددن في إكمال المقابلة، أو قامَتْ الباحثة بإيقافها حفاظاً على سلامة السيّدة المُحاوَرة النفسيّة.

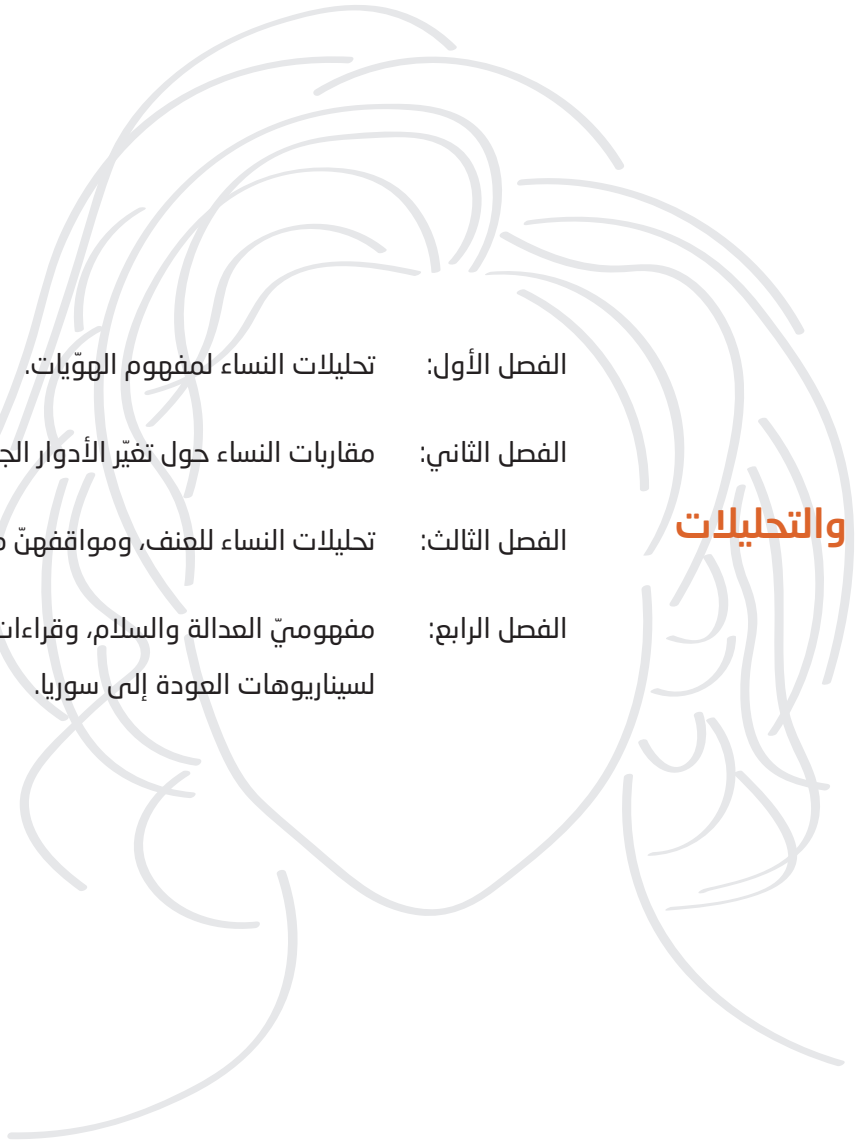

القراءات والتحليلات

الفصل الأول: تحليلات النساء لمفهوم الهوّيات.

الفصل الثاني: مقاربات النساء حول تغيّر الأدوار الجندريّة.

الفصل الثالث: تحليلات النساء للعنف، ومواقفهنّ من العسكرة وآثارها.

الفصل الرابع: مفهوميّ العدالة والسلام، وقراءات النساء لسيناريوهات العودة إلى سوريا.

قد يكون موضوع الهويّة من أصعب المواضيع وأكثرها جدلاً، إن كان في المجال الأكاديميّ والأدبيّ العام أو النسوي، أو في النقاشات العامة بين المجموعات والأفراد، خاصّةً في فترات النزاع وما بعدها. تأتي معظم هذه الجدالات من وجود افتراضٍ مُسبقٍ بأنّ الإنسان لديه هوية، هويّةً مُعرّفةً، واضحة المعالم. بالطبع، يرتاح البعض لتعريفات الهويّة الواضحة، كأن تقول مثلاً: هويتي عربية فقط، أو كردية فقط، أو سورية فقط . فهنا، من الواضح أن الهوية قد رُدَّتْ ورُبِطَتْ بالانتماء العرقيّ والوطنيّ، أو أن تقول أنا امرأة متدينة، فالهوية هنا تمّ ردّها للجنس والدين. وقد يتمّ التعريف بالهويّة بأيّ شكلٍ آخرٍ بناءً على النقاشات الداخلية ضمن كلّ إنسانٍ، والظروف والهيكليات والسياسات المحيطة. بينما ينزعج البعض من هذه التصنيفات والتأطيرات، ويرفضونها لعدم إحساسهم/نّ بالإنصاف في مثل هذه التعريفات الجاهزة، وعدم الاكتفاء بها للتعبير عن ذواتهم/نّ وانتماءاتهم/نّ. وقد يجد البعض غرابةً في مجرد طرح سؤال الهويّة عليهم/نّ، لابتعاد هذا السؤال والطرح عن الواقع المُعاش والحياة اليوميّة، وقد يفتح نقاشاتٍ داخليّةٍ تتعلّق بهذا الموضوع، لم تكن مُصاغةً مُسبقاً.

لا شكّ في أنّ التعريفات الذاتيّة والأسئلة عن الانتماء تكثر في فترات الحروب، نتيجة انهيار الدوائر المُحيطة بالأفراد وتغيّرها، وتفاعل كلّ شخصٍ مع كلّ هذا. إلّا أنّ هذه التغيّرات هي أكثر حساسية وعمقاً من أن تُصنّف بين «الهويّة المستقرّة» و«أزمة الهويّة»، تلك المصطلحات التي تتردّد في كثيرٍ من النقاشات الأكاديميّة وغير الأكاديميّة حول الهويّات في فترات النزاع بشكلٍ خاصٍّ.

وتدور في فلك الهويّات الكثير من التساؤلات: هل هويتي الذاتية هي شيء يُشابه بطاقة الهوية التي تحمل تاريخ ميلادي، وجنسي، وانتمائي الديني أحياناً، وجنسيتي؟ هل أنا هذه الصفات فقط؟ أم أنّني جملةٌ كاملةٌ من متغيّراتٍ كثيرةٍ قد تثبتُ بعضها لفترةٍ من الزمن، وقد يستمرّ البعض الآخر بالتغيّر والتفاعل مع الحياة والأشخاص والمعارف المُكتسَبة والإدراكات المُستَنتَجة طوال الحياة.

ثمّ يأتي السؤال الآخر، ماذا يعني أن تكون لي هويّة؟ وهل لديّ أنا كشخصٍ هويّةً واحدةً أم عدّة هويّات؟. ومن أين جاءتْ هذه التعريفات القاسية التي لم ينتج عنها إلا الحروب، والتمايزات، والظلم، والتهميش لأشخاصٍ من عرْقٍ، أو جنسٍ، أو جنسيةٍ، أو دينٍ، أو طبقةٍ معيّنةٍ؟ ومن هي الجهات المُستفيدة منها على المستويات الجمعيّة المحليّة أو الدوليّة؟ وهل نملك تقسيماتٍ واضحةٍ لهويّاتنا كما هي مُصنّفةٌ أكاديمياً وسياسيّاً، وأحياناً مُجتمعيّاً؟ هل عندما أقول: هذه هويتي الجنسيّة، وهذه هويتي السياسيّة، وهذه هويتي الاجتماعيّة، وهذه هويتي الدينيّة...إلخ، أمتلك القدرة على رسم حدودٍ فاصلةٍ بين هذه الهويّات؟ ألا تتقاطع ضمن كلّ شخصٍ، وتُعيد إنتاج نسخٍ جديدةٍ منها في كلّ لحظةٍ أو فترةٍ من الحياة؟

كثيرة هي الأسئلة التي يمكن أن نطرحها حول الهويّات وتعريفاتها ومعانيها وسياساتها. وقد لا يكون هذا البحث مكاناً مناسباً لشمل جميع هذه الطروحات ومناقشتها بالتفصيل. حيث يحتاج هذا الموضوع إلى أبحاثٍ كاملةٍ بمنهجيّاتٍ نسويّةٍ تُركّز على الهويّات وكلّ ما يدور في فلكها. إلّا أنّنا أردنا طرح بعض هذه الأسئلة قبل البدء بتحليل قراءات النساء بشكلٍ خاصٍّ لهويّاتهن، كي نؤكّد على أنّنا لا ندعم التعريفات الجامدة للهويّات، **وأنّنا لسن من رائدات تأطير ورسم وتوظيف الهويّة أو الهويّات في أماكن وأهداف لا تتوافق معها. فالمرأة بكلّ تفصيلٍ من الحياة اليومية، وفي كلّ شذرةٍ من الذاكرة، وفي كلّ إحساسٍ، وفكرةٍ، ومكانٍ، وزمانٍ، تتغيّر وتُغيّر في محيطها.** وموضوع الذّات والهويّة أعقد من أن نرسمه في أشكالٍ أو نصنّفه في كتيباتٍ. وهذا ما أكّدَتْه لنا قراءات النساء ممّن قابلناهنّ لذواتهّن وهويّاتهنّ على اختلاف المصطلحات والطرق التي وظّفنها للتعبير عن هذا الموضوع.

وقد تكون الدراسات والتحليلات النقديّة التقاطعيّة، وخاصةً النسويّة (علماً أنّ كلمة نسويّة تشمل ما سبقها) هي المساحة الأكثر مُلائمةً لطرح موضوع الهويّات بطريقةٍ أقرب للواقع والإنسان. تلك التي تُحلّل وتدرس أثر حالةٍ ما، أو نظامٍ، أو مجتمعٍ، أو أيّ عاملٍ آخر، وجملة تقاطعاتها على تشكيلات الهويّات الفردية والجمعية في سياق ما، خاصّةً بما يتعلق بالمرأة. وتُستَنْبَط نقاشات الهويّات من المصدر بحدّ ذاته، وليس حوله أو عنه. بل إنّها تفتح المدارك والأفق لفهم الذّات، ومراجعة هذه التعريفات. مثلاً، عند دراسة ومناقشة الهوية الجندريّة[12] وتأثّرها وأثرها بالتنشئة الاجتماعية.

إنّ مثل هذه التحليلات، إنْ ارتبطَتْ بسياقها، وتمّ أخذ المعلومات عنها من الأشخاص باعتبارهم/نّ مصدراً رئيسيّاً، لها دورٌ كبيرٌ في فهم الذات، وتفكيكها، لرؤية أجزاءها التي تمّ فرضها وتناقلها والتسليم بها، والأجزاء التي يمكن تغييرها بما يتوافق مع رغبة وكينونة كلّ فردٍ، وخاصّةً المرأة. كما لها دورٌ كبيرٌ في تعزيز ذاتيّة المعلومة والوصف، والتأكيد على أنّ المرأة هي الأجدر والأقدر على وصف وتحليل ما يخصّها بما يتعلق بالهويّة الجندرية. فتأتي هنا المفاهيم الأكاديمية كإطارٍ مُساعدٍ، وليس أساسياً، للتعبير عن هذه المعلومات. وتلعب المنهجيّات البحثيّة دورها في ربط المعلومة بالسياق والمصدر، وتحليلها.

وقد تُساهم الأسئلة عن الهويّة والهويّات بالطريقة البنّاءة المذكورة سابقاً، تلك الأسئلة الخالية من الافتراضات والأهداف المتحيّزة، في إيجاد أرضيةٍ جمعيّةٍ ما، يُمكن الانطلاق منها إلى توافقاتٍ مفقودةٍ بين النساء، ومع مجتمعاتهنّ، خاصّةً في مراحل الثورات والحروب.

فتح قيام الثورة في سوريا عام 2011 حواراتٍ داخليةً عند معظم من شاركن/وا فيها أو تأثرن/وا بها، حواراتٌ لم تكن مطروقةً من قبل، أو على الأقل كانَتْ مكتومةً. وانتقلَتْ هذه الحوارات إلى مستوياتٍ خارج الذات، إلى الشريكات والشركاء، إلى الصديقات والأصدقاء.

.....

وتساءلَتْ الكثيرات والكثيرون عمّا يجمع بين السوريين والسوريات وما يفرّق بينهم/نّ. فقد أعاد قيام الثورة، اختلاط الناس في سوريا بطريقةٍ لا تشبه هيكليات التواصل والفصل السائدة قبلها: اختلطَتْ نساءٌ ورجالٌ من طبقاتٍ اقتصاديّةٍ مختلفةٍ، ومناطق جغرافيّةٍ مُختلفةٍ، دوائر اجتماعيّةٍ متنوّعةٍ، وانتماءاتٍ دينيّةٍ متنوعةٍ، وفئاتٍ عمريّةٍ متنوّعةٍ...إلخ. وأجمع العديد على أهدافٍ واحدةٍ في خطّها العريض، واختلفن واختلفوا في كثير من التفاصيل. برزَتْ أدوارٌ جديدةٌ للمرأة والرجل لم يعتادا عليها قبل الثورة والحرب، ولم يكن لها أيّ بيئةٍ حاضنةٍ سابقاً. وحمل العديد هموماً ربما لم تحتلّ سابقاً حيّزاً جمعيّاً واسعاً: همّ التغيير على المستوى الوطني، همّ وهدف النهوض بالبلد، والتنمية الاقتصادية، وحريّة التعبير السياسيّ بشكلٍ خاصٍّ.

ومع تسارع الأحداث وتكاثف العنف والعسكرة والموت والاعتقال والنزوح والاختفاء والتهجير، فقدَتْ هذه المجموعات تواصلها بشكلٍ عنيفٍ. حتى أنّ ما كان متاحاً من تواصلٍ بسيطٍ قبل الثورة، مثل الانتقال بين المناطق والمدن، أصبح غير متاحٍ إطلاقاً، بل حوصرت العديد من المناطق وانقطع ناسها عن كلّ أشكال الحياة. وقد تغيّرتْ عند العديد من النساء، الأحلام والأهداف والأدوار والقناعات والانتماءات والنظرة إلى الذات وإلى تعريفاتٍ مهمّةٍ كالعائلة، الوطن، الأمان، السياسية، العسكرة، العنف...إلخ، متأثراتٍ بتجاربهنّ الخاصّة، والظروف التي تعرّضن لها، والسياقات التي عشنّ ضمنها.

إنّ سؤال مجموعةٍ من النساء في هذا البحث عن الهويّات يهدف، بجزءٍ كبيرٍ منه، إلى أن نستمع مرة أخرى لبعضنا، وأن نفهم التغيّرات التي حصلَتْ على مستوى الذات والمستوى الجمعيّ، خاصّةً من منظور المرأة التي تُلقى عليها عادةً الهويّات، وتُنسب إليها الأدوار، دون الاستماع إلى حوارها وتحليلها في أغلب الأحيان، وأحياناً مع موافقتها.

قمنا بالسؤال عن الهويّات، إنّما ليس بشكلٍ مباشرٍ فقط، بل تركنا المساحة مفتوحةً لتعبّر النساء عن ذواتهنّ بالطريقة التي يفكرن بها. مثلاً، تقاطعتْ الأحاديث عن الهويّات عند معظم النساء مع حديثهنّ عن تغيّر الأدوار الجندرية ضمن سياقٍ معيّنٍ، فما حصل ومازال يحصل مع معظم النساء السوريات اللواتي تمَّتْ مقابلتهنّ، قد هزّ وغيّر مفاهيم كثيرةٍ داخلهنّ، ودفع الكثيرات منهنّ إلى مراجعة الذات من نواحٍ عديدةٍ، ومراجعة الأحلام والأهداف والمخاوف والانتماءات والأدوار.

كانَتْ خطتنا بعد قراءة وتحليل المعلومات الواردة في المقابلات القيام بدمج فصل الهويّات والأدوار الجندرية، لتداخلهما وتقاطعهما في كثيرٍ من المساحات. إلّا أنّنا عدلنا عن ذلك، بسبب زخم المعلومات وثِقل جمعها في فصلٍ واحدٍ.

هويتي هي أنا

كان هذا الجواب الصارخ لمعظم النساء اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ في لبنان. أجبن بطريقةٍ حازمةٍ لم نجدها في باقي المقابلات. قد يجمع هؤلاء النساء نزوحهنّ إلى لبنان في وقتٍ مُبكّرٍ نسبياً بين عامي 2012-2014. وهنّ من الفئة العمرية الثلاثينية والأربعينية، وقد نزحن من مناطق ريفيةٍ ثائرةٍ (داريا، الزبداني، القصير، ريف درعا)، وشاركن بطريقةٍ متفاوتةٍ بالعمل الثوري والإغاثي في مناطقهنّ السابقة. جميعهنّ ذوات مستوىً تعليميٍّ متوسطٍ إلى جيّدٍ، وتعمل جميعهنّ في منطقة البقاع مع منظمات المجتمع المدني بشكلٍ مهنيٍّ أو تطوعيٍّ، ويكملن دراستهنّ الجامعيّة، أو يُعلّمن، ويعشن أوضاعاً اقتصاديةً صعبةً. ومن جهةٍ أخرى، فهنّ يختلفن بكثيرٍ من التفاصيل الأخرى الخاصّة بشخصية وتجربة كلّ إمرأةٍ منهنّ، وبطريقة تحليلهنّ ونقاشهنّ.

> **«أنا مها وبس، وما بنتمي لحدا. أنا مها إنسانة حرّة وبس. تغيّرت نظرتي عن الهوية، قبل كانت هوية تقليدية: مها مسلمة سنيّة. أنا حالياً لا أنتمي لأحد. أنا لو عليّ لإلغي كل هي الأمور، بس بخلي اسمي، وبلغي كنيتي، وكلمة سوريّة وسنيّة. ما بدي. مها إنسانة وحرة وبس. الهوية هي الأفعال اللي بتدل على شخصية الإنسان وبترجم أفكارو. هلأ، بعرّف حالي مها وبس، أنا امرأة بتعشق الحرية وبتعشق الكرامة، وضدّ أي نوع من العنف أو الإرهاب تحت أي مسمّى تعليمي أو تربوي.» (مها، داريا، 44)**

تقول مها هذه الكلمات بإصرارٍ وقوّةٍ واضحين. فقد عبّرتْ من خلال سردها ووصفها لحياتها قبل الـ 2011 عن تلقّيها لصدماتٍ وضغوطاتٍ عديدةٍ تنبع من تسلّط الزوج، واضطرارها لسنواتٍ طويلةٍ للابتعاد عن تحقيق ذاتها. ثم إصرارها على تحقيق حلمها الدراسيّ الجامعيّ والوصول إليه. وشاركَتْ في الثورة، وتعرّضَتْ بعد عام 2011 إلى التنمّر المجتمعيّ، والمعاملة السلبيّة من أقرب الأشخاص لها، بعد فقدان زوجها وابنها. وتدعمها نجمة، وهي من نفس المنطقة، وقد ذكرَتْ أنّ تعريف الهوية تغيّر لديها، ولا تريد أن تُعرّف عن نفسها إلا كمدافعةٍ عن حقوق الإنسان. تعيش كلاهما، كما تعيش عدة نساءٍ أخرياتٍ، في لبنان الآن. **كُنّ ذات طموحٍ كبيرٍ في تحقيق الذّات، وتوسيع إدراكاتهنّ المعرفية قبل عام 2011، إنّما كان طموحاً مُغلّفاً بطبقاتٍ من الضغوط المجتمعية والأسريّة، التي تطلب منهنّ البقاء ضمن نمط المرأة التقليديّ. وقد أبدين أنّ حرية المرأة في اختيار ما تصبو إليه هو حقّ لها، ولا يتعارض مع أيّ قانونٍ أو دينٍ.** ومع بدء الثورة، شاركن بكلّ طاقتهنّ بالحراك، وشهدن أعنف المشاهد من مجازر وقصفٍ وتهجيرٍ. ولم يشعرن بالإنصاف من ناحية طموحاتهنّ الثورية، أو موضعهنّ في المجتمع بعد ذلك. وانتقلن إلى أصعب سياقات النزوح (لبنان) من حيث البيئة المُستخيفة، والقوانين، والحقوق المتعلّقة بالنازحين السوريين والنازحات السوريات[13]. ويرين الآن أنّ لا بديل لهنّ عن الاستمرار بما يقمن به، وعن تطوير الذات والتفكير بها بعيداً عن الأطر السابقة.

13 ننصح بمراجعة تقرير مركز كارنغي للشرق الأوسط بعنوان: اللاجئون وصناعة الفوضى الإقليمية العربية. تأليف مهى يحيى، لأخذ فكرة أشمل عن ظروف النزوح في دول مثل لبنان والاردن والقوانين المتعلقة بها
https://carnegieendowment.org/files/Paper_Maha_Yahya_Arab_Refuge_Final__ARA.pdf

«أماني» من الزبداني، قد كوّنَتْ الفكرة نفسها، وفقدَتْ الكثير من أفراد عائلتها وهي في سنٍّ صغيرةٍ في فترة الثورة والحرب. واستطاعتْ أن تصمد أمام الوضع المعيشي السيء في لبنان، وأن تُكمل دراستها الجامعية التي أُجبِرَتْ على إيقافها أثناء الحرب بسبب عدم قدرتها للوصول إلى مدينة دمشق. قرَّرَتْ أماني أن تضع مشاعر الحنين جانباً، وأن تُجاري الواقع، فذكرياتها الجميلة عن طفولتها ومراهقتها غطّتْها ذكرياتٌ جديدةٌ مؤلمةٌ ودمويةٌ.

> **«اذا بدي إحكي بشكل مجرد، فالهوية هي انتمائك للمكان يلي فيه ذكرياتك، طفولتك، مدرستك والحياة الحلوة يلي كنتي عايشتيها بالوطن، بالأرض يلي خلقتي فيها. حاليا الهوية ماعاد تعنيلي غير الإنسان. هويتك هيي إنسانيتك بغض النظر عن جنسيتك. أنا سفيرة سلام، في جوّاتي سلام كتير.» (أماني، الزبداني، 25)**

إنّ لبنان بيئةٌ لا يوجد تعريفٌ للنزوح أو اللجوء فيها، وتبقى كلّ امرأةٍ نازحةٍ إليه تعيش في صيغة المؤقت والمجهول. فمن جهةٍ، لم يتمّ الوصول إلى أيّ حلٍّ سياسيٍّ في سوريا، ولا يزال موضوع العودة الآمنة بعيداً عن المستقبل القريب[14]، أمّا فكرة البقاء في لبنان، فليس لها أفقٌ أيضاً.

يبدو أنّ النساء السوريات ممن قابلناهنّ يحاربن هذا المجهول والمؤقّت عن طريق المضيّ في مراجعة وتحديث تعريفاتٍ للهويّة تتعلّق بنضالاتهنّ الثوريّة، والمعرفيّة، والتعليميّة، والذاتيّة كنساءٍ، بعد خذلانٍ كبيرٍ على مستوى الأهداف والأحلام والأشخاص والدول. **يبدو أنهنّ اخترن الطريق الأصعب: بناء الذات، وتحمّل المسؤوليات، ومحاولة التأقلم. فقد حوربَتْ هوياتهنّ القديمة في بلدهنّ وفي مكانهنّ الحالي. وضاقتْ عليهنّ هذه التعريفات بعد الخبرة والتجارب التي عشن وشاركن بها. فاخترن تعريفاتهنّ الخاصّة التي تليق بأحلامهنّ وقدراتهنّ.**

لن أنتمي إلى هذا البلد أبداً

ظهر غضب النساء اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ في تركيا تجاه سياسات البلد مع السوريين والسوريات. كان هذا الغضب، هو مركز الحديث عند ذكر الهويّات، سواء كنّ ممن هُجّرن حديثاً (2018 بعد تهجيرهنّ من قِبَل النظام من الغوطة الشرقية في دمشق، أو ممن نزحن من إدلب وضمنها في عام 2019)، أو ممّن نزحن سابقاً منذ عام 2014. حتى أنّ بعضهنّ أظهرن هذا الغضب مع أنّهنّ يحملن الجنسيّة التركيّة. غضبٌ ينبع من نظرة الناس في غازي عنتاب إليهنّ كمهجّراتٍ فقط. إنّها الصفة الوحيدة التي تُلقى عليهنّ، بغضّ النظر عن خبراتهنّ، وأفكارهنّ، وعملهنّ. خاصّةً بالنسبة للنساء اللواتي عانين من الحصار لفتراتٍ طويلةٍ (الغوطة الشرقية في ريف دمشق)، أو بقين لفتراتٍ طويلةٍ في مناطقهنّ السوريّة قبل الخروج منها إلى تركيا مُجبراتٍ (حلب، درعا). وبالتالي، لم يتعاملن مع كلمة لاجئةٍ أو مهجّرةٍ كثيراً سابقاً، بل كنّ يتعاملن أكثر مع ظروف الحصار أو القصف من قِبَل النظام السوري وحلفائه، أو من هجوم واحتلال فصائل مُتشدّدةٍ لمناطقهنّ. فبعد كلّ هذه المعاناة، وبعد نزوحهنّ إلى خارج سوريا بكلّ ما يحملن من تعب النزوح، والحصار، والقصف، والتهجير والفقد، وكلّ ما يترافق معه من صدماتٍ نفسيّةٍ وأزماتٍ شديدةٍ على معظم المستويات. وإنّ رمي كلمة مهجّرةٍ أو لاجئةٍ كهوية لهنّ، وبطريقةٍ سلبيّةٍ، قد زادَتْ من تعبهنّ النفسيّ ومن غضبهنّ الذاتيّ.

14 ستتحدّث بتفصيل أكبر عن مفهوم العودة الآمنة والطوعية في الفصل الرابع من هذا البحث.

«هويتي بتركيا لاجئة مع إني أحمل الجنسية أصولاً، لانه عندي اصول تركية، ما بيعنولي شي ولا عندي انتماء لهي البلد، انتمائي لحلب المحررة..حجارها مقدسة.» (ماجدة، 33)

«الهوية قديماً انا من سوريا من درعا، من سكان الشام، كل عمري بالشام. الهوية حاليا من سوريا، مهجّرة، بتدبح هالكلمة...» (سمر، 43)

بحكم التعرّض للتمييز والمعاملة العنصرية في تركيا، يقترح بعض الأشخاص على النساء بأنْ يقمن بتغيير لباسهنّ أو أشكالهنّ بما يتناسب مع الشكل العام للمرأة التركية المتديّنة (المسلمة). وبالطبع، هذا لا يحدث فقط في تركيا، بل في كثيرٍ من البلدان التي تلجأ أو تنزح إليها نساءٌ من بلدٍ آخر. خاصّةً بما يتعلّق بالشكل. ففي ألمانيا مثلاً، تتلقّى العديدات من النساء، المُحجّبات بشكلٍ خاصٍّ، نصائح بخلع الحجاب، أو تغيير لون الشعر لغير المجبات إلى اللون الأشقر، وذلك بحجّة حمايتهنّ من العنصرية التي قد تُمارس عليهنّ. وقد ذكرَتْ إحدى السيدات «وردة، 32» والتي تمّتْ مقابلتها في البحث الأوليّ، وهي تعيش في السويد، أنّها غيرت لون شعرها خلال الصّيف إلى اللون الأشقر من دافعٍ ذاتيٍّ مُتعلّقٍ برغبتها البحتة بالحصول على هذا اللون، فتفاجأَتْ بالتغيّر الإيجابي في التعامل من قِبَل بعض سكّان البلد، وجاءَتْها عباراتٍ من محيطها القريب تصف شكلها الجديد بالخطوة الجيّدة لحمايتها من العنصريّة. قالَتْ: «تفاجأتُ بتغيّر معاملة بعض الناس معي بالسويد لمّا غيّرت لون شعري، حسيت بأنهم/نّ صارو يعاملوني بطريقة فيها احترام أكبر، حتى صاروا يبتسمولي».

يُشبه هذا الخطاب، الخطاب الذكوريّ والتمييزيّ المتعلّق بالاغتصاب أو التحرّش، والذي يُطالب النساء بعدم الخروج متأخراً، أو عدم ارتداء ملابس تكشف أجسادهنّ، كي لا يتمّ اغتصابهنّ. هذا الخطاب في حالات العنصرية والعنف الجنسيّ والتمييز على أساس الجنس، الذي يطلب من الضحية والمتعرّضة للمظلومية أن تُغيّر سلوكها، بدلاً من معاقبة الشخص أو المجموعات التي تقوم بالفعل التمييزي والإجرامي أحياناً، أو بدلاً من إيجاد حمايةٍ وحلولٍ تمنع هذه الأفعال عن النساء.

تقول «رند» التي تعرّضَتْ لهذه المطالبات أكثر من مرّةٍ في سوريا وفي تركيا، حتى أنّها اضطرّتْ في سوريا إلى تغيير لباسها بسبب تشدّد الفصائل المُسيطرة.

«الهوية ...في واحد قلي ليه ماعم تلبسي الزي التركي لدرء الخطر أو ليه ماتلبسي الحجاب التركي؟ انا سفيرة لبلدي حتى باللباس. هاد اللباس يلي اضطريت غيره بمرحلة من المراحل بالغوطة لما انفرض علينا. اتقيدت حريتي هنيك لان اعين الكل عليي. بس هون ماراح غيّر.» (الغوطة الشرقية، 39)

أنا أبحث عن ذاتي

أمّا النّساء السّوريّات في الدّول الأوروبيّة، فقد أظهرْن تعريفاتٍ مختلفةٍ للهويّة، من الواضح أنّ وجودهنّ في مجتمعاتٍ جديدةٍ تفرض سياسات اندماجٍ من طرفٍ واحدٍ (طرف الدّولة) ولا تأخذ في معظم الأحيان خبرات النّساء السّابقة بعين الاعتبار قد أثّر عليهنّ كثيراً[15]. إضافةً إلى النّظرة الدّونيّة التي يتلقّينها بمستوياتٍ مختلفةٍ من بعض المؤسّسات والأفراد في البلاد التي لجأن إليها، مما جعلهنّ يتمسّكن بأجزاءٍ من هوياتهنّ السّابقة ويغيّرن تلك الأجزاء التي يرفضْنها كنساءٍ.

انخفض تقدير الذّات عند البعض وسيطرتْ حالةٌ نفسيّةٌ سلبيّةٌ على الكثيرات منهنّ، علماً أنّ الوضع في بعض الدّول الأوروبيّة أكثر استقراراً من دولٍ أخرى كتركيا ولبنان فيما يتعلّق باللجوء. إلّا أنّ غربة المكان واللغة والعلاقات الاجتماعيّة والتّهميش للخبرات يلعب دوراً أساسيّاً في هذه الحالة النّفسية. تقول «ناديا» التي تعيش في ألمانيا منذ 3 سنوات:

> **«لمّا إجيت على ألمانيا، كلّو راح. صرت حس حالي نقطة على الشمال. أنا هون رقم وبس. ولا شي. علما أنو حاولت وما استسلمت، شاركت بورشات، قدّمت على وظائف كثير بس مامشي الحال. اشتغلت لفترة قصيرة وكنت رضيانة عن حالي، بعدين خلص الشغل ورجعت للحالة النفسية السيئة. ما ضل عندي تقدير لذاتي، ولا احترام وعم لوم حالي دائماً.»**

أكدّتْ بعض النّساء ممّن قابلناهنّ في أوروبّا، عن تلقّيهنّ «لصدمة أوروبّا» كما أسمَوها، فانهارتْ أسطورة الأمان التي تخيّلنها لسنواتٍ طويلةٍ عن المجتمعات الأوروبيّة، فلا تناغم مع المجتمع، ولا دوائر اجتماعيّة، ولا قدرةٌ على تحقيق الذّات من خلال العمل أو المشاركة الفاعلة، مع خوفٍ دائمٍ من ارتكاب أيّ خطأ بأيّ معاملةٍ رسميّةٍ، خاصّةً مع جهل اللغة الجديدة والأنظمة الجديدة، وغياب العمل الذي قد يُضفي أماناً ماديّاً وبعض الاستقرار.

من جهةٍ ثانيةٍ، بدأتْ تشعر بعض النّساء ممّن قابلناهنّ في أوروبا بالانتماء إلى البلد الحاليّ أكثر منه إلى سوريا وذلك لأسبابٍ عديدةٍ، يتعلّق بعض هذه الأسباب بالبلد الجديد وما يتيحه من أمانٍ على المدى البعيد على المستوى الشّخصيّ والعائليّ، خاصّةً بما يتعلّق بتعليم الأطفال والفرص التي قد تتاح لهم في المستقبل، والحقوق الإنسانيّة والقانونيّة الخاصّة بالنّساء والأطفال الموجودة والمطبّقة، حيث عبّرن عن الخوف الدّائم في سوريا من اليوم القادم حتّى قبل الثّورة والحرب، وتتمحور الأسباب الأخرى حول عدم قدرة بعض النّساء بعد الآن على تحمّل العنف المجتمعيّ الذي كان يُمارَس عليهنّ سابقاً في سوريا، وتقييد الحرّيّات الشّخصيّة حتّى البسيطة منها بشكلٍ تمييزيٍّ مبنيٍّ على جنس المرأة كونها أنثى، بينما أشارتْ بعض النّساء إلى العنف المجتمعيّ الذي كنّ يواجهنه وعوائلهنّ والمبنيّ على المواقف السّياسيّة لبعض النّساء أو بعض أفراد العائلة.

15 ننصح بمراجعة ورقة النقاش بعنوان " تغيّر الادوار الجندرية وتأثيرها على النساء السوريات اللاجئات في برلين في ضوء الصراع السورية" تأليف: نسرين حبيب. الناشر: WZB Berlin Social Science Center . المرجع باللغة الانكليزية: https://bibliothek.wzb.eu/pdf/2018/vi18-101.pdf

حيث عبّرتْ بعض النّساء عن قساوة هذا العنف الذي مورس عليهنّ في سوريا وتأثيره على تفاصيل حياتهنّ اليوميّة لأسبابٍ سياسيّةٍ حتّى قبل الثّورة، ورفضهنّ التّام وتخوّفهنّ من العيش مرّةً أخرى في مثل هذه السّياقات. بينما عبّرتْ أخريات عن عدم اهتمامهنّ بربط هويتهنّ ببلدٍ معيّنٍ أو جنسيّةٍ، وأنّهنّ يستفدْن من كلّ التّجارب ولهنّ حريّة ما يناسبهنّ من تعريفاتٍ للهويّات، فلا الهويّة الأوروبيّة هي هويتهنّ ولا السّوريّة كذلك.

نرى من خلال ما شرحتْه ووصفتْه النّساء في سياقات التّهجير الثّلاثة (لبنان، تركيا، أوروبا) الصّعوبات والتّحديات التي يواجهنها كمغتربات في هذه الأماكن. وذلك على الرّغم من اختلاف هذه السّياقات جملةً وتفصيلاً عن بعضها البعض، وكيف أثّرت هذه التّجارب القاسية على تعريفات النّساء لذواتهنّ وهويّاتهنّ، وكيف يحاربْن ما لا يرغبْن ويطمحْن إلى تحقيق طموحاتهنّ ولو بعد حين. ونشعر بالتّعب الذي يلفّ كلمات معظم ما قالتْه النّساء، هذا التّعب الذي تصرّح عنه بعضهنّ وتخفيه أخرياتٍ كآليّاتٍ دفاعيّةٍ للصّمود وعدم فقدان الأمل. إنّ العيش في سوريا سابقاً، ثمّ معايشة حدوث الثّورة والمشاركة بتفاصيلها بمستوياتٍ مختلفةٍ وارتفاع سقف الآمال على التّوازي مع سقف خيبات الأمل المتلاحقة، ثمّ الاضطرار إلى مغادرة كلّ هذه الصّراعات القاسية إلى صراع الغربة الأقسى. **كلّ هذا جعل معظم النّساء يعدْن التفكير بأدقّ التّفاصيل والتّعريفات والانتماءات السّابقة لتكوّن كلٌّ منهنّ صورتها الخاصّة عن هويّاتها. بعضهنّ استطعن دخول حيّز التّطبيق المبنيّ على اكتشافاتهنّ والبعض الآخر ما زلن في مرحلة التّفكير والتّحليل وأخرياتٌ للأسف لم تُتَح لهنّ ولم تُتِحْ لأنفسهنّ حتّى فرصة التّشكيك وإعادة التّحليل والاستنتاج.**

تتشارك هذه التّجارب على اختلافها في التّفاصيل واختلاف شخصيّات وتجارب من عشْنها، بأنّ النّساء خرجوا من سوريا وعاشوا اغتراباً لم يعرفْنه من قبل، فماذا عن النّساء اللواتي نزحْن عشرات المرّات داخل سوريا أو بقين في أماكنهنّ؟ كيف يقرأن هويّاتهنّ؟ كيف يحلّلن ويصفْن اغترابهنّ الدّاخليّ في أماكنهنّ؟

من أنا بين كلّ هذا الدّمار؟

قد تكون النّساء في الرّقة هنّ أكثر من عشْن سياقاتٍ مختلفةٍ خلال فترة الثّورة والحرب، فمن مظاهراتٍ سلميّةٍ في بداية الثّورة عام 2011، إلى استلام الجيش الحرّ[16] السّلطة في الرّقة عام 2013، إلى دخول داعش[17] عام 2014، مع قصف التّحالف الدّوليّ المستمرّ، إلى خروج داعش من الرّقة عن طريق دخول قوّات سوريا الدّيمقراطيّة على الأرض[18]، حيث استلمت كامل السّلطة في الرّقة عام 2017، وقصف التّحالف الدّولي إلى تهديد قوّات الولايات المتحدة الأمريكيّة عام 2019، بوقف الدّعم عن قوّات سوريا الدّيمقراطيّة واحتماليّة إعادتها للنّظام أو دخول القوّات التّركية.

16 جميع النساء اللواتي قابلناهنّ في الرقة، أطلقن تسمية الجيش الحر على الفصائل التي واجهت النظام واستلمت الرقة بعد ذلك. نحن استخدمنا نفس التعبير. للإطلاع على معلومات أوسع حول هذه الفترة الرجاء الاطلاع على المصدر التالي من موقع حكاية ماانحكت Syria Untold: https://syriauntold.com/2014/01/08/%D9%83%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%88%D9%84%D8%AA-%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%82%D8%A9%D8%9F/

17 داعش: الاختصار المتعارف عليه لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الإرهابي.

18 قوّات سوريا الديمقراطيّة: تعرف اختصارا " قسد": تُعرف قوات سوريا الديمقراطية عن نفسها بأنها "قوة عسكرية وطنية موحدة لكل السوريين تجمع العرب والأكراد والسريان وكافة المكونات الأخرى."

تبدو ملامح هذه المعاناة والصّدمات المتوالية على طريقة تعبير النّساء السّوريّات في الرّقة عن أنفسهنّ؛ خيبة أملٍ وإحباطٌ وخوفٌ من القادم. فإنّ ثقل المراحل التي مرّتْ والمرحلة الحاليّة قد جعل النّساء في حالة صدمةٍ مستمرّةٍ، صدمةٌ يتذكّرنها كلّ يومٍ مع حجم الدّمار الهائل في المدينة والذي صنعته هجمات وقصف التّحالف الدّوليّ بشكلٍ رئيسيّ. لقد تكرّرت كلمة «دمار» في كلّ مقابلةٍ أكثر من مرّةٍ، بل إنّ هذا الدّمار دخل في نشاطات الحياة اليوميّة لبعضهنّ، فـ «ربا، 46 سنة»، ربّة المنزل، تقضي معظم يومها في تنظيف الرّكام الذي يتجمّع من حيطان المنزل نصف المدمرة. و «سلام، 27»، التي نزحتْ مع زوجها من البوكمال إلى الرّقة عام 2017، والتي كانتْ تدرس الثّانوية العامّة عند بدء الثّورة. تعمل الآن هي وزوجها في تنظيف الرّكام من البيوت التي تدمّرت من القصف، هذا هو مصدر دخلهما اليوميّ. معظم اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ في مدينة الرّقة كنّ موظّفاتٍ أو مهندساتٍ أو معلّماتٍ أو ربّات منزلٍ، فقدْن الآن أيّ دورٍ كنّ يعشنه سابقاً في الجانب المهنيّ والاجتماعيّ، وأبدين قلقهنّ الشديد من نسيان الخبرات التي لديهنّ، مثل اللغة الإنكليزية أو الهندسة أو التّكنولوجيا.

هناك شعورٌ وتعبيرٌ واضحٌ عن خسارتهنّ لكلّ شيءٍ؛ خسرْن عملهنّ ودراستهنّ وخسرْن وجود أفراد العائلة والعلاقات الاجتماعيّة، خسرن المدينة ومعالم المدينة، خسرن حلم الوصول إلى بلدٍ أفضل ولا يعرفْن ما هو تعريف منطقتهنّ حاليّاً. تقول «ربا»:

> **«من أقعد الصبح، أفكر أي حيط أعمّر أو أي ركام أشيل. ما أطلع على حدا، جيراني كلهم اللي سافر واللي اتوفى وأهلي تدمّر بيتهم وانتقلو على الريف، والروحة عندهم صارت صعبة وبناتي تزوجن وما ظل حدا اروح علي. اقضي يومي كلو تفكير وأجهز طبختي لولدي اللي يشتغلون بالصناعة..بس.»**

بينما وصفتْ «حنان، 34 سنة» التي كانتْ موظّفةً فيما سبق، وتعيش اليوم في المنزل فقط مع أمّها التي تعاني وضعاً صحّيّاً صعباً، أنّها كانتْ سابقاً حرّةً، بينما الآن هي مقيدةٌ وفي داخل قفصٍ لا مفتاح له، فقد أصبحتْ وحيدةً، دون عملٍ، مع مسؤوليّاتٍ كبيرةٍ وثقيلةٍ.

عن الهويّة والانتماء ... عن خوف الإلغاء

إنّ الفترة التي تمّ فيها البحث إلى يومنا هذا، هي فترةٌ يملؤها الخوف من المجهول الذي تُنذِر به الحرب والقصف المستمرّ والتّهجير لملايين النّاس من سكّان إدلب وممّن تهجّروا إليها في السّنوات الماضية، أُجريَتْ معظم المقابلات تحت القذائف وداخل الأقبية، حيث بدأ القصف من الطّيران الرّوسيّ وطيران النّظام بشكلٍ متواصلٍ في الشّهر الثّامن 2019، نزحتْ النّساء طوال السّنوات الثّمان الماضية منذ عام 2012 إلى أماكن متعدّدةٍ داخل إدلب، والمقصد دائماً «المكان الأكثر أماناً»، فقدْن الكثير من أفراد عائلاتهنّ وجيرانهنّ، ومُنعتْ عليهنّ الحركة خارج إدلب. فلا يستطعن الذّهاب إلى مناطق سيطرة النّظام، ولا إلى مناطق سيطرة قوى سوريا الدّيمقراطيّة، ولم يردْن سابقاً الذّهاب إلى مناطق سيطرة داعش.

عبّرتْ معظم النّساء اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ عن هوياتهنّ بغضبٍ ويأسٍ، فقد شابه حديثهنّ عن الهويّات حديثهنّ ووصفهنّ لحياتهنّ اليوميّة; قلقٌ وخوفٌ ودمارٌ وفقْدٌ وبعض الأمان وبعض الأمل وحنينٌ وترقّبٌ وتعبٌ... إلخ. ومع ذلك حاولتْ معظمهنّ الاستمرار في العمل خلال السّنوات السّبع الماضية، وخاصّةً في العمل المدنيّ، بل إنّ إحداهنّ تعمل في إحدى المجالس المحليّة، لم يتوقّفن عن السّعي من أجل تطوير أنفسهنّ والحصول على مصدرٍ ماديٍّ يدعم حياةً من الصّعب مجاراتها، ولكنّ قلق الانتماء فقط إلى هذا المكان المحاصر وإلغاء انتمائهنّ إلى البلد الأكبر لا ولن يفارق عقولهنّ ومشاعرهنّ.

سأبدأ هنا بالحديث عن الهويّة كبطاقة تعريفٍ، فعند سؤال البعض منهنّ عن الهويّة، أوّل ما خطر لهنّ بطاقة الهويّة، قد يسأل البعض عن سبب هذا الرّبط، وسنذكر هنا ما ذكرنه وحلّلنه عن هذا الموضوع فهنّ لم يعدن يستخدمن بطاقة الهويّة السّوريّة منذ سنواتٍ، فلا حاجة لها في مكانٍ شبه محاصرٍ لا تحرّك داخله إلّا من قريةٍ إلى أخرى، يحتفظْن جميعهنّ ببطاقات هويّاتهنّ، إلّا أنّ علاقتهنّ بهذه البطاقات تشبه علاقتهنّ بذواتهنّ في السّياق الحاليّ ومنذ 2012 في إدلب، **مازال الانتماء إلى سوريا أكبر من إدلب هو الهدف والحلم، لكن هذا ليس بمتاحٍ حاليّاً فيخبّئن هذا الأمل في داخلهنّ كما يخبّئن بطاقات الهويّة في بيوتهنّ في أماكن آمنةٍ ويحرصْن عليها لأن لديهنّ اشتياقٌ لحمل هذه البطاقة واستخدامها، لكن أين؟** إن ذهبن إلى مناطق تحت سيطرة النّظام، فإنّ هويّاتهن هي سبب توقيفهنّ لساعاتٍ طويلةٍ على الحواجز، كأنّهنّ لسن سوريّاتٍ، وإن بقيْن في مناطقهنّ، فلا حاجة إلى هذه الهويات ولا يعترف عليها أحد.

> **«وين هلأ تغيرت الهوية، إلنا تمن سنين ما شلنا هويتنا إلا اذا بدنا نروح على مناطق النظام، هون بالمناطق المحررة ما حدا بيشيلا أبدا. كل واحد بيطلع وبفوت على كيفه. اذا بدي روح على مناطق النظام، يوم، يومين تلاتة عالطريق. حواجز كتير وكلو بدو يفيش هويتك.» (ابتسام، معرة النعمان، 52)**

بل أبعد من ذلك، اختلفت بطاقات الهويّة بين بعض المناطق السّوريّة، ولم يعد يكفي أن تكون لدى البعض بطاقة هويّةٍ سوريّةٍ كي يستطيعوا/يستطعنَ العيش في مناطق سوريّة نزحوا إليها، بل أصبحتْ تضاف صفاتٍ جديدةً على بطاقة الهويّة. تصف «لينا، معرة النعمان» حسرتها وحزنها وغضبها، عندما نزحتْ إلى عفرين في السّنوات الماضية ثمّ عادتْ بعدها إلى معرّة النّعمان، وصُدِمتْ بأنّ السّلطات هناك (الإدارة الذّاتيّة لشمال شرق سوريا 2017) في عفرين، لم يعترفوا بدفتر العائلة كوثيقةٍ رسميّةٍ لابنتها. فاضطرّت إلى إصدار بطاقةٍ جديدةٍ لابنتها لتسجيلها في المدرسة الابتدائيّة. وكانتْ صدمة «لينا» كبيرةً عندما قرأتْ البطاقة ووجدتْ كلمة «مهجّرة» عليها، وقالتْ: **«يعني نحنا ضمن البلد، عفرين من سوريا، حرقت قلبي كلمة نازح، لاجئ، مهجّر كيف بدا تنكتب جنب اسم بنتي بالمدرسة. معقول انو التغينا؟ انو هيك؟»**[19]

19 لم نستطع الوصول إلى معلومات أكثر دقّة حول الإجراءات التي كانت تتخذها السلطات بما يخص الأوراق الثبوتية في عفرين في تلك الفترة. لم نجد مراجع أو توثيقات حول تلك الفترة، ولم نستطع الحصول على معلومات متكاملة من بعض الأشخاص الذين/اللواتي عشن تلك الفترة أو كانوا/كنّ قريبات من تفاصيلها.

من ناحيةٍ أخرى، عبّرتْ معظم النّساء في إدلب عن عدم شعورهنّ بالانتماء للوطن الأكبر سوريا، ورغبتهنّ بالشّعور بهذا الانتماء، وأنّهنّ عندما ينظرن الآن إلى خريطة سوريا، لا يرين إلّا التّقسيم، ودخول هويّاتٍ غريبةٍ مثل الرّوس والإيرانيّين وغيرهم، وبعضهنّ أكّدن على الانتماء للجمهورية العربيّة السّوريّة[20]. هناك حنينٌ واضحٌ للانتماء إلى الوطن الأكبر، إلى قانونٍ موحّدٍ، إلى جغرافيا أوسع، إلى شعبٍ كاملٍ، فقد اختنقْن في إدلب التي يعشقْنها بالتّأكيد، لكن لم يكن يوماً أملهنّ أن تنحصر هوياتهنّ وحركتهنّ وانتماؤهنّ بهذا المكان فقط.

> **«الهوية هي إحساسي بالوجود، يعني إنو أنا شخص إلي حقوقي وواجباتي، أنا مواطنة سورية، وهيك بكون إلك قيمة واحترام بالبلد. اذا بدي احكي عن وضعنا هون وخصوصا بالفترة اللي عم نمر فيها، هي فترة عدم الانتماء لأي وطن، ما بحس حالي سورية. هويتي ما تغيرت، هي نفسا عربية، سورية مسلمة، وين مارحت أكيد هي هويتي وبعتز فيها، اللي تغير هوي الشعور بالانتماء.» (رجاء، معرة النعمان، 27)**

مشكلةٌ أخرى طرحتها بعض النّساء في إدلب، تتعلّق بعدم حصول الكثير من اليافعات واليافعين والولادات الجديدة على وثائق رسميّةٍ تثبتُ هويّتهم/هويّتهنّ. هويّات اليافعين واليافعات (فوق سن الـ 14) لا يمكن استصدارها رسميّاً لأنّ مراكز إصدارها هي في مناطق تابعةٌ لسيطرة النّظام لا يستطيع معظم الأهل الذّهاب أو الوصول إليها. ماذا عن الأطفال الذين ولدوا في السّنوات الماضية وليس بالإمكان تسجيل ولادتهم وإثبات نسبهم؟ أبدتْ معظم النّساء قلقهنّ حول هذا الموضوع بشكلٍ واضحٍ، وعلى أنّ مشكلة تسجيل الولادات والزّواجات وإثبات النّسب، مشكلةٌ ستلقي بظلالها على فئةٍ كبيرةٍ من الأطفال والشّباب في المستقبل القريب[21]. بالطّبع هذه المشكلة ليستْ جديدةً، فلقد تحدّثت عنها عدّة جهاتٍ إعلاميّةٍ وناشطين وناشطات ومبادراتٍ مجتمعيّة للفت النّظر لخطر سقوط الجنسيّة السّوريّة أو النّسب عن كثيرٍ من الأطفال داخل سوريا، خاصّةً في منطقة الشّمال السّوريّ، بالإضافة إلى مشاكل عديدةٍ أخرى تتعلّق بالتّعليم والشّهادات وإثبات الملكيّات، إلّا أنّ أحداً لم يستجب بشكلٍ حقيقيٍّ لهذه المشكلة، لا الجهات والمنظّمات الدّوليّة ولا مؤسّسات النّظام السّوريّ. وبذلك كانتْ وما زالتْ الحلول متواضعةً وتتناسب مع الرّاهن المؤقّت ومعظمها جاءتْ من مبادراتٍ أهليّةٍ ومحلّيّةٍ[22]. ونودّ لفت النّظر هنا بدورنا إلى التّجاهل شبه الكامل من قبل المبادرات والمشاريع النّسويّة السّوريّة لكلّ ما يخصّ موضوع النّسب والوثائق الرّسميّة في سوريا في فترة الصّراع.

20 كلمة العربية في جملة (الجمهورية العربية السورية) هي تماما كما ذكرتها بعض النساء ولا تعبر عن رأي جميع النساء، ولا الباحثات ولا منظمة النساء الآن.

21 ننصح بالإطلاع على الرابط التالي لمعلومات أكثر حول مشكلة القيود الرسمية الثبوتية للسوريات والسوريين https://www.noonpost.com/content/21220

22 ننصح بالإطلاع على الرابط التالي الهوية-السورية-للنازحين -في-وطنهم https://syriastories.net/

غاب الانتماء وكَثُرتِ الأسئلة

نقرأ كثيراً عن أوضاع النّساء في مناطق الشّمال السّوريّ خاصّةً تلك التي تقع تحت سلطة قوّات سورية الدّيمقراطيّة، تتضخّم التّصنيفات والأحكام والبروباغندا حول ما يحدث هناك وما سيحدث، وحول الانتماء والانفصال والحقوق والواجبات، وفي خضمّ كلّ ذلك تغيب صورة الأفراد الذين يعيشون الحالة، خاصّةً النّساء. فماذا عن النّساء السّوريّات مثلاً في الحسكة؟ ماذا يقلنَ؟ كيف يحلّلن ويصفن وضعهنّ ووضع المنطقة؟ وأين موقعهنّ ومن هنّ من كلّ ذلك؟

ركّزنا أن تكون معظم المقابلات في الحسكة مع نساءٍ سوريّاتٍ من العرقيّة الكرديّة من الحسكة ونازحاتٍ إليها من مناطق أخرى إليها، ما عدا سيّدةٍ أرادتْ الباحثة الميدانيّة مقابلتها لاختلاف تجربتها، وهي سيّدةٌ عربيّةٌ ديانتها مسيحية كانتْ تعيش سابقاً في الرّقة. أردنا مقابلة سيّداتٍ من العرقيّة الكرديّة لمعرفة كيف سيحلّلن تجاربهنّ وكيف سيتحدّثن عن الهويّة الكرديّة بعد كلّ ما حدث من معارك وتغيّر سلطاتٍ وسياساتٍ، خاصّةً أنّ النّقاش الأكبر والأكثر جاذبيّةً وخطفاً للأضواء من نقاش الأكثريّات والأقليّات الدّينيّة في سوريا حالياً، محلياً ودولياً هو حول انقسام الهويّات بحسب العرق في سوريا. تسيطر غالباً وجهة نظر الرّجل السّوري في معظم النّقاشات المتعلّقة بالعرق والانقسام أو التوحّد على أساسه، وبالتّالي نقرأ ونسمع اتّهاماتٍ وتعميماتٍ وشائعاتٍ حول طريقة تفكير كلّ من يسكن المناطق ذات الغالبيّة الكرديّة في سوريا وكأنّها نهجٌ موحّدٌ متّفقٌ عليه بين الجميع، لذلك قد تعيد مقابلة بعض النّساء من تلك المناطق أجزاءً من الصّورة الواقعيّة لما تمرّ به بعض هذه المناطق وأهلها، وقد تعدّل من جمود التّعميمات والنّقاشات التي يتبادلها الرّجال في معظم الأحيان على المنابر العامّة حول الهويّة والانتماء. **بطريقةٍ أو بأخرى، فإنّ تحليلات العديدات من النّساء تأتي من انطباعاتٍ داخليّةٍ ومراقبةٍ معتمدةٍ على الواقع وعلاقاته أكثر من أن تكون جاهزةً وصلبةً وغير قابلةٍ للنّقاش**، لذلك الهدف الرّئيسيّ هنا ليس إثبات أو إنكار شيءٍ، بل إعطاء طريقةٍ مختلفةٍ لقراءة الهويّات تقدر عليها بعض النّساء أكثر من غيرهنّ وغيرهم.

تكمن هنا أهميّة الأبحاث النّسوية التي تخلق المساحة لمن تتمّ مقابلتهنّ بأن يتحدّثن من منظورهنّ عن مواضيع تخصّهنّ دون تأطيرهنّ ضمن افتراضاتٍ مسبقةٍ، ولا ندّعي هنا أنّ هذه المقابلات تمثّل مجمل رأي النّساء في الحسكة لكنّها تلقي الضّوء على بعضها، علماً أنّه تمّتْ مقابلة نساءٍ كرديّاتٍ في مناطق سوريّةٍ أخرى أيضاً.

عبّرت جميع النّساء عن ذواتهنّ بوصفهنّ سوريّات، ولم يذكرن الهويّة الكرديّة بشكلٍ مباشرٍ إلّا عندما تمّ الحديث عن أحداث 2004[23]، وعن الثّورة والحرب بما تضمّنتها من أحداثٍ عسكريّةٍ وسياسيّة.

23 ننصح بمراجعة تقرير: إنكار الوجود قمع الحقوق السياسية والثقافية للأكراد في سوريا. هيومن رايتس ووتش، 2006. https://www.hrw.org/ar/report/2009/11/26/256004

تحدّثن عن فقدهنّ الرّوابط الاجتماعيّة من أهلٍ وأصدقاءٍ، وعن تغيّر ديناميّات الشّارع في الحسكة. فالتّعامل مع الأشخاص اختلف باختلاف الانتماءات، فالبعض مؤيّدٌ/مؤيّداتٌ لسياسات قوّات سوريا الدّيمقراطيّة والبعض رافضٌ/رافضاتٌ لها، وآخرين/أخرياتٌ يؤيّدون/يؤيّدن (وحدات حماية الشّعب الكرديّة في سوريا) والبعض لا. والبعض ينتمون/تنتمين إلى الثّورة في سوريا وآخرين لا... وهكذا. وكلّ هذا أثّر على شعور الانتماء إلى مجموعة، وركّزت بعض النّساء على أنّ شعور الانتماء والهويّة ينبع من الدّوائر القريبة كالأهل والأصدقاء والجيران، أكثر من التّصنيفات العامّة، ونلفتُ النّظر أنّ الهويّة عند معظمهنّ اقترنتْ بالمكان وديناميّاته أكثر من أيّ شيءٍ آخر. حيث أنّ معظم النّساء فقدْن تواصلهنّ مع العائلة بسبب الحرب وتداعياتها، فبعض النّساء استقرّين في المدينة بينما استقرّ الأهل في القرى، والبعض منهنّ قد سافر جميع أفراد عائلتهنّ وبقين وحيداتٍ، بالإضافة إلى فقْد بعض المقرّبين وخاصّةً الشّباب بسبب الموت والاختفاء. تقول «جيلان من المالكيّة - الحسكة»:

> **«الهوية هو إنو أنا إنتمي لمجموعة من الأشخاص، من الأهل، من الأصدقاء ومنهون بتتشكل هويتي. أهلي وإخواتي سافروا، ولاد عمي وبنات عمي سافروا، بالمجمل اللي كانوا قراب مني سافروا، وحاسة إنو كل سنة عم تتغير هويتي بتغيير الناس اللي حولي.»**

وتصف «ديلان» من المالكيّة، حياتها الجديدة بالمشتّتة، فالعلاقات الاجتماعيّة تغيّرتْ، فلم تعد الأمّ أو الأب مرجعيّة الأبناء، والنّاس لم تعد تساعد بعضها، تحسّ بنفسها ضائعةً وذلك بسبب فقدانها لوظيفتها كمعلّمةٍ والتي استمرّت فيها لفترة 20 سنةٍ، وتذكر أنّ السّبب هو إدراج المناهج الكرديّة من قبل الإدارة الذّاتيّة (إدارة ذاتيّة لامركزيّة تسيطر على المؤسّسات المدنيّة في شمال وشرق سوريا) في التّعليم بدلاً من العربيّة وأنّ تعليمها لهذه المناهج سيحوّل تبعيّتها الإداريّة كمعلّمةٍ إلى الإدارة الذاتيّة، وهذا ما لا تريده هي وزوجها بسبب رغبتهما بعدم الانتماء لأيّ جهةٍ بشكلٍ عامٍّ ففضّلتْ البقاء في المنزل، وهذا ما أثّر على شخصيّتها وتعريفها لذاتها كامرأة، حيث أنّ العمل كان جزءً مهمّاً من هويّتها. ولا تريد تعريف نفسها الآن كربّة منزلٍ فهذا ليس ما تريد.

بينما لفتَ نظرنا تفاصيلٌ ذكرتْها النّساء النّازحات إلى المالكيّة - الحسكة تتعلّق بعدم انسجامهنّ مع البيئة الجديدة على الرّغم من أنّ لهنّ نفس الخلفيّة العرقيّة أو الدّينيّة، على سبيل المثال «آفين» التي نزحت من عفرين إلى المالكيّة بسبب سيطرة فصائل درع الفرات[24]، هي لا تشعر بالارتياح بوجودها في المالكيّة بسبب اختلاف العادات والتّقاليد واللهجة، فهي لا تفهم اللهجة الكرديّة في المالكيّة كثيراً وهذا يسبّب لها الحرج والشّعور بالاختلاف. وكذلك الأمر بالنّسبة لـ «ريتا» التي نزحتْ من الرّقة بعد تعرّضها لكلّ أنواع العنف المجتمعيّ المبنيّ على أساسٍ دينيّ وعنفٍ عسكريٍّ منذ بداية دخول داعش إلى الرّقة.

24 فصائل درع الفرات: نسبة إلى العملية العسكرية التي قامت بها القوّات التركية مع بعض فصائل المعارضة تحت عملية أسموها "درع الفرات" على مناطق في شمال سوريا بدأت في 24 آب من عام 2016.

هي الآن مرتاحةٌ أكثر في المالكيّة وترى أنّ قوّات سوريا الدّيمقراطيّة قد تعاملتْ معها ومع ابنها دون تمييز، إنّما جاءها التّمييز من بعض العائلات المسيحيّة في المنطقة، حيث وصفوها هي وعائلتها أكثر من مرّةٍ بأنّهم مجهولو النّسب، خاصّةً عندما قام ابنها بالتّقدم للزّواج أكثر من مرّةٍ من نساءٍ ذوات ديانةٍ مسيحيّة وتمّ رفضه لهذا السّبب ولوضعه الماديّ، إنّ هذا التّمييز يُتعِب «ريتا» وعائلتها إلى حدٍّ كبيرٍ ويشعرها بعدم الانتماء إلى أيّ مكانٍ. كلٌّ من «أفين» و«ريتا» ركزّن كباقي النّساء اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ في الحسكة، على أنّ الهويّة والانتماء مرتبطان جدّاً بالعلاقات الاجتماعيّة وبديناميكيّات الحياة اليوميّة والانسجام ضمن المجموعة الواحدة قدر الإمكان.

لكن من جهةٍ ثانيةٍ، ذكرتْ الباحثة الميدانيّة وإحدى النّساء الكرديّات ممّن تمّت مقابلتهنّ في تركيا، عن تأثّرهنّ الشّديد بردود الأفعال الصّادرة من كثيرٍ من السّوريّين والسّوريّات حول الهجوم التّركي العسكري على مناطق شمال سوريا في تشرين الأول/ أكتوبر 2019[25]، **فقد شعرْنَ بالشّرخ الكبير بين السّوريّين والسّوريّات المبنيّ على أساس الانتماء العرقيّ، فمنهم من شَمِتَ، ومنهم من شَجّع ومنهم من صَمت، وبالطّبع منهم من رفض رفضاً صارخاً،** إنّ هذه المواقف من أشخاصٍ مقرّبين ومقرّبات قد أعادتْ طرح الكثير من الأسئلة في ذهنيهما حول تعريفاتٍ تتعلّق بسوريا والشعب السّوريّ والمستقبل السّوريّ، تساؤلاتٌ عزّزها تصرّفات القوات العسكريّة التي دخلتْ إلى المنطقة والتي معظمها كان بحسب وصف الباحثة الميدانيّة «سولنار» من السّوريّين الّذين تمّ تجنيدهم كفصائل تابعةٍ للقوّات التّركية، والّذين ارتكبوا انتهاكاتٍ عديدةٍ ضدّ المدنيّين في منطقة الحسكة.

25 ننصح بالاطلاع على تقرير باسم الهجوم التركي على شمال سوريا - أطماع قديمة تهدد مستقبل الأكراد، الناشر : DW: Deutsche Welle

يمكن قراءة تغيّر الأدوار الجندريّة للنّساء اللواتي تمّتْ مقابلتهنّ تقريباً في كلّ فقرةٍ من حديثهنّ، إلّا أنّنا أردنا تخصيص فقرةٍ تضمّ مقاربات النّساء حول تغيّر هذه الأدوار في محاولةٍ لعكس أهمّ الأفكار والتّحليلات التي ذكرْنها. وبالطّبع ستضمّ باقي الفقرات في الفصول القادمة مؤشّراتٍ حول تغيّر الدّور الجندري وسببيّته.

إنّ السّؤال حول تغيّر الأدوار الجندرية للنّساء السّوريّات قد تمّ طرحه ودراسته كثيراً منذ بدء الثّورة والحرب في سوريا وبمنهجيّاتٍ مختلفةٍ، ركّزت بعضها على الظّروف الصّعبة والمتراجعة التي أثّرت على المرأة على جميع الأصعدة في حالة الحرب والنّزاع التي تعيشها. قدّمتْ مثل هذه الأبحاث معلوماتٍ عامّةً عن أوضاع المرأة السّوريّة (معلوماتٍ كمّيةً أكثر من أن تكون نوعيّة)، وأشارتْ إلى تدهور الأوضاع على الصّعيد النّفسيّ والصّحيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، إنّما اعتُبرتْ المرأة فيها كضحيّةٍ فقط، ولم تتطرّق بشكلٍ حسّاسٍ إلى ماهيّة التّغيير الحاصل من وجهة نظر المرأة[26]. بينما بحثتْ العديد من منظّمات المجتمع المدنيّ المحليّة والدوليّة هذا التّغيير من زوايا مختلفةٍ كانتْ فيها المرأة موجودةً أكثر كإنسانةٍ مستجيبةٍ وليستْ ضحيّةً ومستقبلةً فقط، فتمّ عرض وتحليل سياسات التّأقلم التي تقوم بها المرأة المهجّرة مثلاً لمجاراة الأوضاع الصّعبة والاستثنائيّة التي تعيشها[27]. لكن بقيتْ ضمن إطار معاناة المرأة في الحرب، ولم ترصد أو تتطرّق لرؤية النّساء الذّاتية لهذا التّغيير، وقامتْ منظّماتٌ نسويّةٌ مدنيّةٌ بإجراء بعض الدّراسات لقياس تغيّر الدّور الجندريّ من وجهة نظر النّساء بشكلٍ حسّاسٍ للجندر وللصّراع بهدف دفع الجهات المموّلة والجهات المدنيّة الفاعلة للقيام بمشاريع واستجاباتٍ تتناسب مع واقع النّساء ونظرتهنّ إلى ما هنّ بحاجةٍ إليه[28].

طبعاً بالإضافة إلى دراساتٍ عديدةٍ بعضها قاستْ هذا التّغيّر في أدوار النّساء بناءً على معايير معيّنةٍ مثل العمل واتّخاذ القرار والمبادرة وحريّة التّعبير والاختيار، وقُرّرَت صفة التّغيير بسلبيٍّ أو إيجابيّ بناءً على رجحان كفّة مجموعةٍ من هذه المعايير.

نحتاج إلى الكثير من الأبحاث والكتب والدّراسات بمختلف أهدافها ومنظورها لتتحدّث عن تغيّر الأدوار الجندريّة والهويّات وعلاقة هذه الأدوار بالسّلطات البنيويّة التي كانتْ قبل الحرب وتلك التي نشأتْ ضمنها، ونحتاج إلى الكثير من القراءات حول علاقة المرأة أو الفرد بشكلٍ أعمّ بالجندر، وعلاقة الجندر بجميع المستويات التي ترتبط به ويرتبط بها، والهيكليّات الهرميّة المبنيّة على أساسه وما تتضمّنها من علاقات قوىً تُمارَس على الأفراد بناءً على الجنس والجندر[29]. **علينا إزالة القشور عن كلمة «الجندر»، كي نستطيع الإحساس بها وإدراك أهميّتها بما يتناسب مع سياقاتنا وتطلّعاتنا، بل ترجمتها إلى الواقع من خلال أمثلةٍ وتجارب وتحليلات النّساء السّوريّات لذواتهنّ والدّوائر التي يعشْن بها والحياة التي يتطلّعن إليها.**

26 على سبيل المثال وليس الحصر، دراسة مصطفى، طلال: "مصائر المرأة السورية في ظل الحرب في المناطق الواقعة تحت سيطرة النظام". وحدة الأبحاث الاجتماعية، مركز حرمون للدراسات المعاصرة.2017

27 على سبيل المثال وليس الحصر، تقرير UNHCR بعنوان WOMAN ALONE: The fight for survival by Syria's refugee women الذي صدر في 2014.

28 على سبيل المثال وليس الحصر تقرير منظمة أبعاد مع منظمة أوكسفام: SHIFTING SANDS Changing gender roles among refugees in Lebanon الذي صدر عام 2013.

29 كارول، كوهن، المرأة والحرب. ترجمة ربى خدام الجامع. الرحبة للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى 2017. تصدير: المرأة والحرب نحو إطار مفهومي.

لذلك، ما أردْنا البحث عنه في مقابلاتنا مع النّساء السّوريّات في هذا البحث كان مبنيّاً على سؤالين مفتوحين يتعلّقان بماهيّة هذا التّغيير الذي حصل على النّساء وآليّة حصوله، بمعنىً آخر، كيف ستصف وتحلّل المرأة السّوريّة التّغيير الذي حصل في دورها، وما هي المفردات التي سوف تستخدمها في هذا الوصف، هل ترى أنّ هذا التّغيّر هو فقط انزياحٌ في الأدوار الجندريّة بين ما هو منوطٌ بالرّجل وما هو منوطٌ بالمرأة تقليديّاً، أم ستعبّر عنه أو عن جزءٍ منه بأنّه تغيّرٌ كان يجب أن يحصل لها ولغيرها؟ وأنّ هذا التّغيّر يصبّ في تعريف المرأة غير المرتبط بأدوارٍ محدّدةٍ فقط، هل خلق أو سيخلق هذا التّغيير تعريفاتٍ جديدة للمرأة وموضعها في مجتمعها؟ هل أضاف إليها هذا التّغيير أم أخذ منها أم هو خليطٌ من كلّ هذا، مادورها هي في هذا التّغيير، هل فرضته، اكتسبته أو هو جامعٌ لكلّ ما سبق؟ من ناحيةٍ أخرى، أردنا أن نرى كيف تحلّل وتقرأ بعض النّساء السّوريّات استدامة هذا التّغيّر، هل تريد بعضهنّ العمل على تثبيته أو تغييره أو إلغائه، ولماذا؟ والهدف الأكبر، هو الاستماع لما يقلْنه وقراءته معمّقاً والعمل معه وعليه للوصول إلى مساحاتٍ أكبر وأكثر استدامةً حيث تكون المرأة قادرةً على التّعبير عن ذاتها وأهدافها الفرديّة والمجتمعيّة، وفاعلةٌ في تحقيقها.

سنبدأ أوّلاً بعرض ما قالتْه النّساء عن تغيّر حياتهنّ قبل وبعد عام 2011، هنا لم نسأل عن تغيّر الدّور الاجتماعيّ المبنيّ على تصنيفها كامرأةٍ في المجتمع بشكلٍ مباشرٍ، ولم نفترض التّغيير في دور المرأة بل أردْنا أن تقوم هي بوصفه وتحليله في حال وجوده وبطريقتها الخاصّة. فقمنا بالسّؤال عن كيفيّة وصف يومٍ عاديٍّ سابقٍ، مقارنةً بيومٍ حاليٍّ، والسّؤال عن تغيّر دوائر الثّقة من حولها وتغيّر الأماكن التي تتحرّك وترتبط بها وتغيّر موضعها في المجتمع ودوائر القوى فيه، وعن الأوضاع الاقتصاديّة والسّياسيّة والأمنيّة وعن تغيّر العلاقات الاجتماعيّة، وأسئلةٌ عن أهدافها وآمالها ومخاوفها. ثمّ قمْنا تقريباً في نهاية المقابلة (وأحياناً في منتصفها، وذلك حسب سياق ومجرى كلّ مقابلة)، بطرح سؤالٍ مباشرٍ حول رؤية كلّ امرأةٍ لتغيّر أدوار المرأة خلال النّزاع في سوريا، وتصنيفها لأثر هذا التّغيير من حيث إيجابيّته عليها أم سلبيّته أم كلاهما، وماهيّته ومدى وكيفيّة استدامته.

في غياب زوجي أو أبي أو أخي أو هوَ

كثيراتٌ من النّساء اللواتي قد قابلناهنّ قد فقدْن وجود الرّجل بمعناه الذي كان (التّقليدي) في حياتهنّ لأسبابٍ عديدة، بعضهنّ فقدْن أزواجهنّ و/أو أبناءهنّ و/أو آباءهنّ و/أو أخوانهنّ بسبب الموت أو الاعتقال أو الاختفاء أو البعد الجغرافي مثل لجوء ونزوح السّيدة لوحدها إلى أوربا أو لبنان أو تركيا، ومع اجتماعهنّ على ألم هذا الفراق وقسوته وصدمته، فقد اختلفْن بردّات فعلهنّ على هذا الغياب واستجابتهنّ له وأثره عليهنّ كنساءٍ، وعلى تفاصيل حياتهنّ اليوميّة وعلى قراءتهنّ للحاضر والمستقبل وتحليلهنّ للماضي.

«فاتن» من دمشق، تعاني من ضغط الحياة وتكاثر الأدوار التي يجب أن تقوم بها منفردةً، وذلك بعد اعتقال زوجها منذ سنواتٍ عديدةٍ واستلامها هويّته منذ سنتين (كإثباتٍ على وفاته) من أحد الفروع الأمنيّة، وبعد سفر وهجرة جميع إخوانها الشّباب. فهي الآن مضطرّة إلى العمل لتأمين حياة أولادها بالحدّ الأدنى، تغيّر نمط الحياة اليومية التي تعيشها، وتغيّرت قدراتها، لكن أكثر ما عبّرت عنه هو تعبها من كلّ ذلك، فوجودها في بيئةٍ قاسيةٍ، غير داعمةٍ، غير آمنةٍ، بمفردها حيث غابتْ كلّ الدّوائر الاجتماعيّة المساندة من حولها قد أرهقها وقوّاها في نفس الوقت كما تقول هي:

«كنت قضي نهاري بالاهتمام ببيتي، متل كل ست بيت، طبخ وولاد و تنضيف، وزيارات احياناً للقرايبين، اليوم بالاضافة للطبخ و البيت والاولاد عندي هم الشغل والوراق الرسمية و المعاملات، مدارس الولاد و متابعة قصصهم جوا البيت وبراته، ماعندي دوام، شغلي ببيتي، بنزل ع الشام مرتين ع الاقل مشان جيب اغراض لشغلي وهيك، وبقضي معاملات أو قصص تانية، عم يروح النهار بتأمين قصص الحياة البسيطة اليومية.» (فاتن،32)

وتضيف فاتن، أنّ كلّ هذا التّعب النّفسيّ والجسديّ قد جعلها غير قادرةٍ على أن تفرح لأيّ شيءٍ مثلما كانتْ سابقاً، إلّا أنّ الظّروف التي تمرّ ومرّت بها قد جعلت منها شخصاً أقوى، وغيّرتْ نظرتها إلى الكثير من الأمور، فقد أيقنتْ أنّها الآن وحيدةٌ، وقد تبقى كذلك لفترةٍ طويلةٍ في مجابهة كلّ هذه الهموم، وأنّ لا خيار أمامها سوى الاستمرار وغضّ النّظر عن تعبها.

وتشاركها بالرّأي «ديلان، 35» من الحسكة، والتي اعتقل زوجها في جنوب سوريا مما اضطرّها هي وأطفالها للعودة إلى الحسكة، والاهتمام بكلّ تفاصيل بيتها وأطفالها والعمل من أجل تأمين حدٍّ أدنى للمعيشة.

«انا كنت بعتمد كتير ع جوزي بكل شي بجبلي كلشي قدامي، حتى لما بالعيد انا وياه بنشتري تياب الولاد وهيك شغلات، ماكنت بعرف اروح للسوق لحالي.. بس هلا بعرف النجار اللي بيصلح البواب، اللي بيصلح الغسالة، شو مابدك. بس بتعرفي قويت شخصيتي من هيك يعني انا تمسكت بالحياة ليش؟ مشان ولادي مشان فيني ربيون وهلا ممكن تشوفيني قوية عرفتي كيف تغير فيني كتير شغلات... بس بخصوص صحتي ونفسيتي لا، في مرات كتير عم اضعف وبروح لغرفتي وبيكي.. مابشكي لحدا.»

فاتن وديلان، وبعض النّساء اللواتي يعشْن ظرفاً مشابهاً إلى حدٍّ ما لا يرين ما يحدث معهنّ هو تغيّرٌ في أدوارهنّ كنساءٍ، بل على أنّه انزياحٌ لأدوار الرجل باتجاه أدوار المرأة[30] بسبب غيابه، وهذا الانزياح الذي لا يدعمه توافر فرص عملٍ أو دعمٍ مجتمعيٍّ لهنّ أو لأطفالهنّ، بل يجعل منهنّ مسؤولاتٍ عن كلّ شيءٍ ومرهقاتٍ دائماً. هنّ لا يرفضْن أن يعملن ويكنّ مسؤولاتٍ عن أمورٍ كثيرةٍ، إنّما لم يطلبن هكذا تغيير ولا يردنه بشكله الحاليّ، فقد فرض هذا التّغيير نفسه فرضاً عليهنّ.

30 يمكن الاطلاع على المصدر التالي والذي يتحدث بجزء منه، عن ثبات رؤية البعض من النساء النازحات في الأردن لثنائية الرجل والإمرأة والأدوار المنمطة لكل منهما. "We are women and men now": Intimate spaces and coping labour for Syrian women refugees in Jordan. ورقة بحثية كتبتها Karen Culcasi عام 2019.

بينما «مها»، التي نزحتْ من دمشق إلى لبنان وفقدتْ زوجها وعانتْ من فقد أفرادٍ آخرين من عائلتها في سوريا، تصف حياتها الآن بحياة الحريّة، فهي الآن لا تخاف من أحدٍ، ولا تخاف من عقابٍ ما على خيارٍ هي اتّخذته، هي قادرةٌ على حلّ جميع الأمور المتعلّقة بها وبأولادها، بتعبٍ شديدٍ لكن بحريّةٍ واستقلاليّةٍ، هي قادرةٌ الآن على بناء علاقاتها مع المحيط الخارجيّ بالطّريقة التي تجدها مناسبةً، هي تشعر أنّها إنسانةٌ كاملةٌ ولا تحتاج إلى أيّ وصايةٍ من أحدٍ خاصّةً من الرّجل، بل طرحتْ المشاركة بالواجبات بين الرّجل والمرأة في الأسرة الواحدة من دون فوقيّة أحدهما على الآخر كنموذجٍ بديلٍ عن العلاقة النمطيّة بين الرّجل والمرأة ضمن الأسرة الواحدة، المشاركة بحسب خيار كلٍّ من المرأة والرّجل. فعندما تختار المرأة أن تعمل أو تدرس أو ترعى أطفالها على شريكها أن يدعمها، بل إنّ أيّ فعلٍ يقوم به أحدهما يجب أن يتناقش ويتشارك في مسؤوليّاته الطّرفان الرّجل والمرأة بشكلٍ متساوٍ وعادلٍ لكليهما، وبشكلٍ لا يحدّ من خيارات المرأة على حساب قيام الرّجل بتنفيذ خياراته.

> **«كنت كتير انزعج من كلمة انو «خلاكي تدرسي» او كلمة «انا مفضل عليكي خليتك تدرسي» انا كنت كتير انزعج من هي الفوارق بين الرجل والمرأة مع انو ماكان عندي كل هالوعي. بس دايما اسأل حالي طيب ليش انت معلش؟ يعني انا فيني اذا انت درست قلك والله كتر خيري اني خليتك تدرس؟ ليش انا لاني مرأة؟ ما هاد حقي الشخصي وعلى حسابي تعبت تعب فظيع. يعني وقتا برجع لقصة الفورارق بين الرجل والمرأة والفوقية الاستعلاء انا بكره جدا انو الرجل يستعلي على المرأة بكره الشغلتين سواء الرجل يستعلي على المرأة او المرأة تستعلي على الرجل بكرها جدا هي الفوارق وهي العنجهية، الحياة مشاركة انا وانت، خود وعطي.»**

تؤكّد «هدير، 35»، والتي أيضاً نزحت إلى لبنان وفقدتْ والدها وزوجها في سوريا، على أنّ الثّورة التي قامتْ بسوريا كان يجب أن تقوم أوّلاً على النّظام الأبويّ، على الرّجل الذي لا يسمح لزوجته وابنته بإعطاء أيّ رأيٍ، والذي يعتبرها مهما صار عمرها ومهما اكتسبتْ من خبرةٍ في الحياة، ضعيفةً وتحتاج إلى حماية الذّكر ولو كان هذا أخوها المراهق الذي لم يبلغ من العمر 12 عاماً وكانتْ هي الأكبر عمراً ومعرفةً وثقافةً.

وقد ربطتْ هدير وبعض النّساء مفهوم الثّورة بالمجتمع الأبويّ، فبعد كلّ ما قمْن بفعله في الثّورة وعانيْن ومازلْن يعانين من عواقبه، وبعد رؤيتهنّ لقدراتهنّ غير المحدودة وخلقهنّ لمساحاتهنّ الخاصّة، أعدْن النّظر بعلاقات القوّة التي تسود العائلات والمجتمع والتي تُعرّف العلاقة بين المرأة والرّجل، ولم يعدْن يرضيْن بها إلّا إذا تعامل الطّرفان (الرّجل والمرأة) مع بعضهما بشكلٍ ندّيٍّ وعادلٍ.

> **«برجع بقلك، اذا انت ماثرت على نفسك من جوا وكنت عادل بتعاملك مع الاخر لا تثور على حدا. انا زوجي ثار وطالب بالحرية وماكان حدا يسترجي يقلو ليش؟ أو كيف؟ بالبيت. جايه تثور على الحاكم؟ عم يطالب يقعد على طاولة الحوار؟ طيب أول شي سماح للحوار ببيتك.»**

من وجهة نظرٍ أخرى، «إنانا، 41»، والتي نزحتْ ولجأتْ إلى مناطق عديدةٍ داخل وخارج سوريا إلى أن لجأتْ إلى إحدى الدّول الأوروبيّة بعيدةً عن عائلتها التي تطالب الآن بلمّ شملها، تقول أنّها كانتْ تتمنّى أن تكون في سوريا رجلاً كي تتمتّع ببعض الحقوق التي لم يكن بمقدورها الحصول عليها كامرأة. بل تصف نفسها أنّها كانتْ ذكوريّة، بمعنى أنّها كانتْ تمجّد الرّجل في حياتها، فقد كانتْ محميّةً لأنّ والدها رجلٌ قويٌّ مجتمعيّاً، وإخوانها الشّباب وزوجها كذلك، أمّا الآن فهي تعتزّ كثيراً بأنوثتها وترى أنّها مصدر قوّتها وليس ضعفها. وهي قادرةٌ على فعل وتقرير كلّ شيءٍ بحياتها ولا تحبّذ الطّريقة الصّداميّة ولا تطمح أبداً إلى إلغاء الرّجل من حياتها، بل فقط تريد أخذ وخلق مساحتها الشّخصيّة كامرأةٍ وكعاملةٍ وكمؤثّرةٍ في المجتمع، ووجدتْ أنّ هذا لا يجب أن يتنافى مع وجود الرّجل وكينونته بل أنّ الرّجل يجب أن يكون سعيداً لهذا التّغيير لأنّه تغييرٌ يدعو إلى المشاركة وليس إلى الإلغاء ويخفّف من الأعباء الموكلة إليه ولدوره كرجل.

وتشاركها بالرّأي «ناديا» التي لجأتْ إلى ألمانيا، فعلى الرّغم من اشتياقها الكبير لأهلها وأخوتها في سوريا وحنينها وتعبها في الغربة، فهي لا تشتاق أبداً إلى الدّور السّلطويّ الذي كان يمارسه أخاها في العائلة، وتكره كثيراً اللحظات التي كان الرّجال في مهنتها يتعاملون فيها معها فقط على أنّها امرأةٌ صغيرةٌ وجميلةٌ، دون اعتبارهم لها كزميلة عملٍ وصاحبة معرفة.

كذلك شاركتنا «هيفا، 27» من الحسكة، بمشاعر الاستقلاليّة التي تعيشها في ظلّ سفر كلّ أفراد عائلتها عداها، فهي الآن تعيش مع زميلاتها وتمارس عملها وتكتشف الحياة بطريقتها الخاصّة، على الرّغم من اشتياقها الشّديد للعائلة وخوفها المستمرّ من تغيّر ظروف المنطقة[31].

غياباتٌ للرّجل وأدواره المعتادة، تلقّتها وعالجتها مجموعةٌ من السّوريّات بطرائق مختلفةٍ كما ورد سابقاً، اختلفتْ هذه الطّرائق باختلاف شخصيّة كلّ امرأةٍ واختلاف السّياق الذي تعيشه خلال الحرب واختلاف دور الرّجل الذي كان معها، **فليس كلّ الرّجال بمهيمنين وليس كل الرّجال بشركاء، لكنّ التّبعيّة للرّجل هو ما تفرضه الأنظمة الأبويّة ويبقى للرّجل أن يقرّر مدى انخراطه بهذا الدّور وللمرأة بشكلٍ أصعب أن تتمرّد على هذه الهيمنة والتّبعيّة.**
ولكن يبقى الشّيء المؤكّد أنّ أدوار وشخصيّات النّساء قد اختلفتْ ليس فقط بسبب غياب الرّجل، بل بسبب منتجات الحرب وأثرها على جميع المستويات، لكنّ غيابه من وجهة نظر هؤلاء النّساء اللواتي عشْن الثّورة والحرب هو العامل الأساسيّ في تغيير أدوارهنّ.

هكذا تغيّر دوري أثناء الحصار والحرب

تختلف ديناميّات المكان مع ناسه في تلك المناطق التي فرض عليها الحصار عن أيّ ديناميّاتٍ كان أهل المنطقة قد عاشوها من قبل. فعلى الأرض، حصارٌ على الطّعام والنّقود ومواد التّدفئة والمواد الصّحيّة وكلّ شيءٍ ممكن أن نفكّر به في إطار كلمة حصار، حصر الحركة في أماكن قليلةٍ قد لا تتعدّى بضعة أمتار، حصار الأحلام والآمال والمخاوف، حصار المؤقّت للمستقبل، وفي السّماء حصارٌ من نوعٍ آخر، قصفٌ وضربٌ مستمرّين أعميين. وتتغيّر علاقة كلّ شخصٍ في تلك البقعة مع نفسه ومكانه ومع من حوله. ويحدث تغيّراتٍ اجتماعيّة لم تكن مقبولةً أو موجودةً أو مطلوبةً سابقاً، مثل تغيّر أدوار بعض النّساء في تلك المناطق. هذه التّغيّرات التي أسّستها بعض النّساء بنفسها، وشاركتْ أخرياتٌ بها.

31 هذه المقابلة تمت قبل الهجوم التركي (الهجوم العسكري المسمى من قبل الأتراك بنبع السلام) في تشرين الأول/أوكتوبر 2019 على منطقة الحسكة والشمال السوري . وكانت تخوّفات هيفا بشكل خاص من حدوث مثل هكذا سيناريو. وخلال الهجوم قامت مع صديقاتها الإعلاميات بتغطية المناطق المتأثرة بهذا الهجوم العسكري ونقل معاناة المدنيين والمدنيّات.

قالتْ معظم النّساء اللواتي عشن حصار الغوطة الشّرقية في دمشق لأكثر من خمس سنوات، أنّ الثّورة والحرب والحصار قد فتحتْ نافذةً لبعض النّساء لحريّةٍ أكبر وقدرةٍ على التّحرك لم تكن تمتلكها سابقاً، وقد ركّزن على دور العامل الاقتصاديّ في ذلك، فالنّساء أصبحن مضطرّاتٍ للقيام بأعمالٍ يستطعن من خلالها أن يؤمّنّ بعض الدّخل، بعد غياب العديد من الرّجال وفقْد العديد منهم لأعمالهم التي كانوا يمارسونها قبل الحصار. واختلفتِ الآراء حول إن كانتْ هذه الأدوار الجديدة قد فُرضتْ فرضاً أم أنّ النّساء فرضْن ذواتهنّ، أم أنّ الحالة كانتْ خليطاً من هذا وذاك. تقول «رند، 39» التي عانتْ ويلات الحصار وشاركتْ في كثيرٍ من الأعمال والفعاليّات المدنيّة خلال تلك الفترة، أنّ السّبب الرّئيسيّ في تغيّر دور المرأة في الغوطة كان خسارة الرّجال لأعمالهم وبالتّالي حاجة العائلة إلى دخلٍ ماديّ جديد. وتضيف أنّ النّساء كانت لديهنّ الكثير من الطّاقات الكامنة التي تنتظر الفرصة لتخرج.

> **«لما بعض الرجال خسرت اعمالها ووصلوا لعتبة الفقر هون بلش دور السيدات وبلشت تخبز السيدة الأمية. البنت يلي حاملة شهادتها تطلع تدرس لتعيل اسرتها. الرجال آمنو بوجود النساء بهديك المرحلة لانن وقفوا جنبن كتف لكتف ،صاروا يشاركوا باتخاذ القرار ،صارت المرأة بتشكل عامل مهم بالمجتمع الغوطاني ،صارت المراة مكلفة تحمل اعباء غير اعبائها الزوجية، صارت المراة الها صوت ويتاخد فيه. دائما الفكرة الها وجهين، الحالة اللي كنت فيها لا قوتني ولا ضعفتني، بس حسستني انو كنت مغيبة عن كتير شغلات.»**

وتضيف أيضاً أنّ المراكز المدنيّة في فترة الحصار كان لها دورٌ كبيرٌ في فتح طاقة المشاركة للمرأة. فالتّدريبات التي كانتْ تتلقّاها المرأة وإحساسها بالمشاركة والفعاليّة زاد من ثقتها بنفسها على قدرتها لأداء أدوارٍ كثيرةٍ خارج المنزل لم تكن تقوم بها سابقاً.

> **«لما تطلع المرأة تعمل دورة تمكين مهني او معرفي تجي حالمة. كانت المراكز منفسة الحياة للمتدربات وللفريق. كان كتير يسعدني وجود الدعم النفسي يلي ضافوه للمركز. لو كانت فكرة متأخرة بس كانت كتير ايجابية.»**

وتوافقها «سمر، درعا» التي تؤكّد على تغيّر دورها خلال فترة الحصار والحرب ودور بناتها أيضاً، فقد كانتْ معجبةً كيف كان الجيل الأصغر من النّساء فاعلاً ونشيطاً ويرغب بالحصول على أكبر كمٍّ من المعرفة والانخراط بالفعاليّات المجتمعية. لكنّها تزيد على سمر بقولها « النساء هنن فرضوا حالن»

بينما أعلنتْ «هبة» و»ماجدة» من حلب والغوطة الشّرقية في دمشق ثورةً كاملةً على الأنثى التّقليديّة بحسب وصفهما، فقد أدركتا أنّهما قادرتان على صنع القرار في المنزل وخارجه، والأنثى التّقليديّة في نظرهما هي الأنثى التي لا تهتمّ إلّا للأكل واللباس والمنزل، بينما تدفن أحلامها وتؤكّد على ما يبثّه المجتمع من انتقاصٍ لقدراتها. وقد عبّرتا بطريقةٍ ملفتةٍ على أنّ كلّ ما حصل لهما قد زاد من أنوثتهما، لقد وسّعتا تعريف الأنوثة النّمطيّ ليشمل تلك المرأة الفاعلة داخل وخارج المنزل، في الفضاءات العامّة، في كلّ الأمور التي تؤثّر على حياتها اليوميّة من سياسيّة إلى اقتصاديّة ومجتمعيّة. «ماجدة» التي تمّ اعتقالها من قبل أحد فروع الأمن التّابعة للنّظام لفترة سنةٍ تقريباً، تؤكّد أنّ ما عانته وفعلته زاد من حبّها لأنوثتها ولم يلغها أبداً، بل وسّع آفاق الأنوثة لديها.

«زادت فيي شعور المسؤولية وخلتني اجتث شعور الانثى يلي ماعندا شي غير تاكل وتشرب. شي غريب عجيب بزنزانتي من خرقة صغيرة اقصها والف شعري فيها وانا عل التحقيق رايحة مرتبة.انا مابدي الغي انوثتي.»

إلّا أنّ أوضاع الحصار والحرب تختلف من منطقةٍ إلى أخرى ومن امرأةٍ إلى أخرى، وتتفاعل جميع العوامل المحيطة بكلّ إمرأةٍ بطريقةٍ معيّنةٍ قد يصعب تعميمها حتّى على فئةٍ معيّنةٍ من النّساء ذوات الظّروف المشتركة أو المتشابهة إلى حدٍّ ما. لكن يمكن لمس صورٍ تحمل بعض التّعميم في مناطق معيّنةٍ أكثر من غيرها. مثلاً في إدلب وضواحيها، هذه المنطقة ذات السّياق الخاصّ بها التي شهدتْ وماتزال تشهد كلّ أشكال الحرب ومفرزاتها، من نزوحٍ وتهجيرٍ قسريّ إليها ونزوحٍ منها وقصفٍ وفصائل مسلّحةٍ ومجالس محليّةٍ ومنظّمات مجتمعٍ مدنيّ وهدناتٍ وهميّةٍ أو فعليّةٍ، وحصارٍ اقتصاديّ وتجّار حربٍ وفي يومنا هذا الذي نكتب فيه هذه الكلمات، ترزح تحت حربٍ دوليّة من قِبَل النّظام السّوري وحلفائه في المنطقة وتركيا والمجتمع الدّوليّ من جهةٍ أخرى. وينزح قسريّاً أهاليها من رجالٍ ونساءٍ وشبابٍ وشابّاتٍ وأطفالٍ إلى المجهول[32].

في هذا المكان وصفتْ النّساء تغيّرات أدوارهنّ بطرائق عديدة. العاملات سابقاً منهنّ فقدن وظائفهنّ التي كانتْ معظمها في مؤسّسات الدّولة من جامعاتٍ ومدارسٍ ومؤسّساتٍ أخرى. لكن بعد الثّورة والحرب وحصار المكان والحياة، كلّ هؤلاء السّيّدات، انخرطن في المجالات الجديدة التي تأمّنت من قبل المبادرات والمنظّمات العاملة في المجال المدنيّ، وقرّرن تعلّم مهاراتٍ جديدةً تختلف كلّيّاً عن تلك التي اكتسبنها سابقاً ونجحن في ذلك. بالنّسبة لهنّ، إنّ القيام بذلك كان لهدفين، الأوّل لتعويض شعور الخسارة والإلغاء، فإنّ عملهنّ أو دراستهنّ في الحياة التي سبقتْ 2011، كان جزءاً من شخصيتهنّ يعتزّنّ به، ويضمن لهنّ احتراماً مجتمعيّاً معيّناً. بعد عام 2011، توقّفت أعمالهنّ وتوقّف دورهنّ كمنتجاتٍ أو ساعياتٍ للإنتاج أو الحصول على دخلٍ ماديٍّ ولو بسيط، فكان لديهنّ خوفٌ من الإلغاء والإقصاء وتراجعتْ أدوارهنّ إلى ربّات منزلٍ فقط خاصّةً بعد أن شاركن بمستوياتٍ مختلفةٍ في الحراك الجمعيّ المطالب بالتّغيير في ال 2011. والهدف الثّاني، هو مواجهة الأوضاع الاقتصادية الصّعبة التي تواجه المنطقة في ظلّ الحرب، والتي جعلتْ جزءاً كبيراً من الرّجال عاطلين عن العمل أو جعلتْ دخل الرّجل الماديّ وحده غير كافٍ لتحمّل أعباء حياة القصف والنّزوح الدّاخلي، والأسعار الغالية جدّاً للمواد الأساسيّة وللتّعليم الأساسيّ للأطفال.

تروي «لينا، معرة النعمان» تجربتها التي توضح جزءاً مهمّاً من التّغييرات السّريعة التي تطرأ على المناطق والأفراد خلال فترة الحرب. فبينما غابتْ «لينا» عن معرّة النّعمان في عام 2012 لبعض الأشهر لإتمام معاملاتٍ رسميّةٍ في إدلب المدينة تتعلّق بعملها المنتهي، تعود إلى معرّة النّعمان وتقرّر المشاركة مع إحدى المنظّمات التي تقدّم تدريباتٍ طويلةً لمدّة سنةٍ في مجال التّكنولوجيا لتمكين قدرات الشّابّات والشّباب. تتفاجأ لينا بمجموعةٍ من الشّباب والشّابّات من منطقتها يقومون بتجميع أجزاء عدّة حواسب محمولة قد تمّ فرطها ودمجها سويّةً، وتصف التّحدّيات التي اضطرّت وصمّمت على التّعامل معها بل التّفوق بها

32 في بحث لم يتم نشره أجرته الباحثة الرئيسية في لبنان مع منظمة "سوا للتنمية والإغاثة" حول تغيير الأدوار الجندرية للنساء السوريات في مخيمات النزوح في منطقة البقاع. تحدثت فيه النساء عن ازدياد العنف الأسري ضد النساء من قبل الرجال بسبب فقدهم لأدوارهم خاصة الانتاجية منها وتركيز المنظمات العاملة في المجال المدني على توظيف النساء فقط. وهنا يجدر الإشارة إلى أن منظمة سوا للتنمية والإغاثة قد استجابت لهذا البحث من خلال توفير فرص عمل للرجال والشباب وأنشطة ترفيهية بهدف كسر دائرة العنف التي تولدها حالة النزوح والحرب. إلا أنه يبقى دور منظمات العمل المدني في كسر دوائر العنف محدودا أمام ضعف الإمكانيات وعدم استقرار الوضع السياسي والقانوني تجاه النازحين والنازحات. http://www.sdaid.org/

«مالي غير أربع شهور غايبة عن المعرة، ما توقعت شوف هيك تطور. الكل بالصف عم يحكي مصلحات تكنولوجيا بالانكليزي، عم يركبو لابتوبات، إي نحنا كنّا نحلم نشوف لابتوب وما كان عنا لا دراسة تقنية ولا معاهد. حسيت حالي كنت بكهف وما بعرف شي، انصدمت بصراحة، شو هالمعرفة السريعة، كيف صار النت عنا قوي والكل عم يحكي بال Wi-Fi ومن كم شهر كانت الرسالة يادوب تطلع من الواتس آب.... بعد سنة ونص، صرت أنا موظفة معن ومنافسة للأساتذة يلي معنا بنفس المعهد ومدربة كمان... قوة شخصيتك هي يلي بتسهل عليكي كل هالعمل، عندك قوة شخصية بأي مجال بتدخليه بتحسني تتفوقي في.»

بينما استطاعت «رجاء» إيجاد فرصة عملٍ مع إحدى المنظّمات المحليّة تتناسب مع خبراتها السّابقة كمدرّسة، ووجدتْ في ذلك حلّاً جيّداً يحميها من نسيان معلوماتها، ويضمن لها دخلاً جيّداً إنّما قد يكون مؤقّتاً بسبب عدم ضمان استمراريّة عمل المنظّمة بحدّ ذاتها.

أمّا السّيدات ممّن لا يعملْن عملاً مدفوعاً، بل أعمالاً منزليّةً فقط، فقد ساء الحال عليها كثيراً دون أن تجد دائماً فرصةً للانضمام إلى عملٍ ما في مبادرةٍ أو منظّمةٍ مدنيّة، **وهنا يمكن وصف حال النّساء اللواتي لم يكتسبْن سابقاً خبراتٍ عمليّةٍ يمكن توظيفها خارج المنزل بأنّه كان الأسوأ**، فدوائر الأمان التي كنّ يعشن ضمنها وتشكّل النّسبة الأكبر من حياتهنّ، مثل الأهل والأولاد والأصدقاء والجيران والجارات والعلاقات والواجبات الاجتماعيّة التي تتولّد ضمن هذه الدّوائر قد اختفتْ بمعظمها، وحتى أبسطها والتي تتمثّل بوجبة غداءٍ يشترك فيها عددٌ جيّدٌ من أفراد العائلة الواحدة، ولسببٍ ما فإنّ هؤلاء النّساء هنّ اللواتي اشتكين من انقلاب الأدوار بطريقةٍ تظلم المرأة وتنصف الرّجل، فقد أشرن إلى اعتماد الرجل الآن على المرأة في العمل، فالرّجل يبقى في المنزل والمرأة تبحث عن مصدر عمل.

«بحكي مع الحيطان، ماضل حدا جارك، بتطلعي بالحارة ما بتلاقي حدا، كلها فاضية، ماتم حدا ببيتو. شو الحياة بلا أهلي وجيراني، ما بتسوى شي. كلون راحو وماعندي أمل يرجعو. اذا الوضع بتم هيك مين بدو يرجع لبيتو؟وأنا بدور على شغل هون وهنيك، بس أنا ما تعلمت يعني صعب عليّ... بعدين مو عدل يبرك الرجال بالبيت هوي وابنو والنسوان هني يشتغلوا.» (ابتسام، معرة النعمان، 52)

أيضاً تضيف «جوري، معرّة النّعمان» أنّ المنظّمات والمبادرات المدنيّة ترسّخ تمييزاً بين الرّجال والنّساء في أعمارهم المختلفة، وأنّها تتوجّه دائماً لتوفير فرص عملٍ للنّساء بينما تنسى الرّجال الذين لا عمل لديهم، وأنّ هذا ينعكس سلباً على المرأة التي أصبحتْ مسؤولةً عن كلّ شيءٍ وبقي الرّجل جالساً في المنزل لا يفعل شيئاً. وتقول أنّ أثر هذا الشّيء إيجابيٌّ وسلبيٌّ على دور المرأة، لكن فيه قراءةٌ غير شاملةٍ لما قد يفيد ولا يفيد المرأة. وتشير كذلك إلى أنّ هذا التّمييز سلبيّ خاصّةً بين اليافعين واليافعات «يعني مثلا ليش بس البنات بيعملولون دورات تعليم انكليزي، طيب والصبيان ما لازم يتعلموا؟»

كان لافتاً أنّ جميع النّساء من إدلب وغيرهنّ من مناطق مختلفةٍ ضمن سوريا قد ذكرن المبادرات والمنظّمات العاملة في المجال المدنيّ خلال حديثهنّ عن تغيّر أدوارهنّ، وهذا يعكس إلى حدٍّ ما أثر ودور العمل المدنيّ في حالة الحرب. **ونجد أنّ قراءة النّساء لدور وتدخّلات المنظّمات والمبادرات كان بين النّاقد والدّاعم،** فقد أكّدت جميع النّساء أنّ العمل في المجال المدنيّ بمختلف فروعه قد لعب ومازال يلعب دوراً لا يستهان به في بناء القدرات وتأمين فرص العمل، إنّما انتقدن عدم استمراريّة المشاريع في معظم الأحيان وابتعادها عن قراءة الاحتياجات النّابعة عن السّياق، وهذا قد يكون ما جعل معظم النّساء اللواتي تمّت مقابلتهنّ في إدلب بشكلٍ خاصٍّ تتطلّعن إلى افتتاح مشاريعهنّ الخاصّة بدلاً من العمل بين المنظّمات والاتّكال عليها. والنّقد الآخر كما ذكرنا سابقاً هو في توجيه الدّعم للنّساء فقط بشكلٍ عامّ، والذي بنظرهنّ جيّد إلى حدٍّ كبيرٍ لكنّه يضع معظم الحمل على كتف المرأة التي مازالتْ تقوم بجميع الأعمال المنزليّة والخارجيّة وبقي الرّجل في منزله لا يقوم بالكثير. وهذه الشّكوى والنّقد لعمل المنظّمات ليس بجديدٍ وقد تكرّر في سياقاتٍ مختلفةٍ عاشها السّوريّون والسّوريات.

تغيّرنا للأسوأ

التّغيّر في أدوار النّساء اللاتي قابلناهنّ في مدينة الرّقة هو للأسوأ كما عبّرن عنه، فمع اختلاف الخلفيّات للنّساء والحالة الاجتماعيّة والتّعليميّة والاقتصاديّة، إلّا أنّ الإجماع على سوء وضع النّساء في الرّقة كان بين وضمن كلمات كلّ إمرأةٍ تمّت مقابلتها، حتى أنّ بعضهنّ قلْن أنّ وضع النّساء كان أفضل بكثيرٍ في أيّام سيطرة النّظام السّوريّ قبل 2011، وعبّرتْ بعضهنّ أنّ المرأة في الرّقة لم يتمّ إنصافها لا قبل الثّورة ولا بعدها ويذكرن بشكلٍ خاصٍّ المرحلة التي سيطرتْ فيها داعش منذ عام 2014-2017، ثمّ يتحدّثن عن مرحلة حكم قوّات سوريا الدّيمقراطيّة التي مازالتْ قائمة. تصف النّساء في مرحلة سيطرة داعش أنّهنّ كنّ الضّحيّة الأكبر، حيث تمّ تجريدهنّ من كلّ حقٍّ كان مكتسباً، وأصبحتْ التّبعيّة للرّجل هو الشّيء الطّبيعيّ والشّرعيّ، بدءاً من منعها عن العمل إلّا في محلّات الألبسة النّسائيّة، إلى فرض اللباس الأسود على جميع النّساء، إلى منع تحرّك أيّ إمرأةٍ بدون مُحرم، فلا يهمّ إن كانت معلّمةً أو مهندسةً أو طالبةً أو عاملةً، فعليها أن تنسى كلّ ذلك. ولا يجوز أن تفكّر أيّ امرأةٍ في زيارة جارةٍ لها متى يحلو لها ذلك، إلّا إن رافقها مُحرم وكلّ ذلك باسم سلطة الدّين وقوّة السّلاح، فأين المفرّ؟. بل تمّ توظيف النّساء لظلم وقهر النّساء، وهذا ما مثّلته سلطة الحسبة[33] الخاصّة بمتابعة النّساء في الرّقة، وبالطّبع إنّ شرح الظّروف الّتي عانتها النّساء في الرّقة في فترة سيطرة داعش، موضوعٌ منفصلٌ يحتاج التّدقيق والبحث العميق من منظورٍ جندريّ لفهم كيف أثّرت المفاهيم والمعتقدات المتطرّفة على جميع مفاصل الحياة وكيف أثّرت على المرأة والرّجل وعلاقتهما ببعضهما وعلاقة المجتمع والسّلطة بكلٍّ منهما. إنّما نقوم هنا فقط بتحليل الوقائع بناءً على ما ذكرتْه النّساء ممّن قابلناهنّ.

> **«صارت سيارة الحسبة تدور بالشارع وتراقب النساء، أي امرأة ما تلبس الأسود يسحبونها. السيارة كان فيها نساء والسائق بس رجل. في من النساء همّ من الرقة وفي منهن مهاجرات تونسيات ومغربيات. الأجنبيات ما يتدخلن، أما العربيات فكانوا هنن الي يهددون ويتصرفون. كنت أحاول أتجنبون معظم الوقت، لبست الأسود مشان ما ياخذوني أو يغرموني بالمصاري. أحيانا كان بي جلد وضرب. للآن لما نشوف سيارة بيضاء منخاف ومنفكر إنو الحسبة. وبعد ما راحت داعش بقي نسبة كبيرة من النساء منقبات وهاذ ما كان بالرقة قبل. مو الكل قناعة، في منهن مجبورات، وفي منهن يلاقو لبس النقاب أسهل من لبس الحجاب.» (سحاب، 35)**

33 الحسبة هي الشرطة الإسلامية لرصد ومعاقبة المخالفين لـ"أحكام الشريعة الإسلامية".

إنّ تجميد دور المرأة واستضعافها بل إلغاءها تقريباً في فترة سيطرة داعش، كان ومازال له الأثر الكبير على الحالة النّفسيّة للكثيرات من النساء. وارتباط النّساء المنتميات لداعش بالسّلطة والقوّة العسكريّة كان له وقعاً خاصّاً على النّساء. فإنّ ظلم المرأة واستضعافها كان في تصوّرهنّ مرتبطٌ فقط بممارسات الرّجال المتشدّدين، ولم يكن بالحسبان مشاركة النّساء في مواقع سلطةٍ يستطعْن من خلالها القيام بممارساتٍ قمعيّةٍ ضدّ نساءٍ أخريات ضمن هكذا تنظيمات[34].

ثمّ تأتي فترة حكم قوّات سوريا الدّيمقراطية (قسد)، والتي فسحتْ مجالاتٍ كبيرةً لحريّات النّساء وتحرّكاتهنّ. لكنّ النّساء ممّن قابلانهنّ بالإجماع لا يحترمْن فكرة حمل المرأة للسّلاح، ولا يجدن أنّ ما تفعله (قسد) من سياساتٍ تجاه تحرّر المرأة هو نابعٌ من تغييرٍ جذريٍّ لدور المرأة بل وصفْنَه بالاستعراض أو الفهم الخاطئ للحريّات.

> **«برأيي المرأة كانت سلعة على دور داعش، يقمعونها ويقولو هي عورة، وعلى دور قسد صارت سلعة يحاربون بيها أنه لازم نحرر المرأة وعلى دور النظام ما كان في تسليط ضوء على المراة لا سلبا ولا ايجابا يعني لا تقمعونها ولا تحررونها بس أطروا دورها. لا النظام ولا داعش ولا قسد عرفت تعطي المرأة حقها بالشكل اللي لازم تنعطى اياه والشكل اللي لازم يوجهونها عليه.» (لارين، 30)**

نجد في كلام لارين وغيرها من النّساء أيضاً، طلباً في التّغيير قادماً من جهات السّلطة وليس تغييراً تفرضه النّساء، وقد يكون سبب ذلك هو تبدّلات السّلطات الكثيرة التي عانتها المنطقة، والتي اختنقت معظم النّساء فيها ولم تكن لها مساحةٌ للتّعبير أو الفعل وخاصّةً مرحلة سيطرة داعش وما تركته من أثرٍ نفسيٍّ صادمٍ، إضافةً إلى القصف والدّمار الهائل الذي رافق تلك المرحلة. أمّا بالنسبة لمرحلة (قسد) فيبدو أنّ معظم النّساء غير معجباتٍ بمعظم الممارسات التي تقوم بها (قسد) أو ينتقدنها إلى حدٍّ ما. وكأنّ ما يتمّ فعله وتنفيذه من قوانين في الرّقة والتي من شأنها أن تكون في مصلحة المرأة من وجهة نظر (قسد)، تبدو للنّساء على أنّها ممارساتٌ مبالغٌ فيها، وتمثيلٌ للحريّة وخاصّةً فيما يتعلّق بحمل السّلاح. قد يكون انتقاد موضوع حمل المرأة للسّلاح آتٍ من نظرةٍ معيّنةٍ تجد فيها النّساء أنّ السّلاح للرّجل وليس للمرأة، وهذا فعلاً ما عبّرت عنه بعض النّساء بقولهنّ أنّ التّمكين لا يكون بتعليم النّساء على حمل السّلاح، بل بتحسين التّعليم والمهارات المهنيّة.

بل رفضْن فكرة العسكرة بشكلٍ كليٍّ كحاضنٍ لأيّ تغييرٍ حقيقيٍّ على الأرض، وقد يكون مرتبطاً بنموذج المرأة مع السّلطة المسلّحة التي رأينها في فترة داعش أيضاً والتي ينبذنها نبذاً جهوراً. إضافةً إلى ذلك، ارتبط نقد بعض النّساء بالعامل العرقيّ، فالنساء العربيّات يجدن أنّ المساحة الأكبر الموجودة حاليّاً للمرأة في الرّقة متحيّزةٌ للمرأة الكرديّة أكثر من العربيّة. وبشكلٍ عامّ وصفتْ معظم النّساء أنّ وضعهنّ في تدهورٍ مستمرٍّ وأنّهنّ أكثر من تضرّر في حربٍ صنعها الرّجال كما وصفْنها.

34 للاطلاع الأوسع على علاقة النساء بالإرهاب من منظور جندري، ننصح بقراءة كتاب " النساء والإرهاب" دراسة جندرية. تأليف الكاتبتين: د. آمال قرامي ومنية العرفاوي. مسكيلياني للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، 2017.

نعم تغيّرتْ أدوار البعض منّا

في منطقة الحسكة الّتي تحكمها قسد أيضاً. حللّت النّساء أدوارهنّ واختلافاتها بطرقٍ متنوّعةٍ. فمنهنّ من يجدن أنّهنّ تضرّرن على الصّعيد الشّخصيّ كنساءٍ، حيث فقدْن أعمالهنّ السّابقة وتحمّلن مسؤولياتٍ جديدةً لم يطلبنها، بل ترين أنّ مظاهر تحرّر المرأة في الحسكة هي مظاهر شكليّةٌ يفرضها الرّجال وليستْ تغيّراتٌ جذريّة تفرضها النّساء.

> **«أكتر شغلة تغيرت عليي فقدان الوظيفة بعد العمل وهيكي يعني اشتغلت 20 سنة حسيت كأني زتيتها كلها بالأرض أبدا كأني رجعت وحدة من أول ومن جديد بالعكس هي مو إنو تخلف بس أنا ضمنيا أشعر أني متخلفة ست بيت وعادية متلي متل أي وحدة، وقفت حياتي يعني....» (شيلان، 47) وعند سؤالها عن التّغييرات في أدوار النّساء بشكلٍ عامٍّ في منطقتها أجابتْ: «هادا السؤال يضحكني على فكرة تعرفي ليش؟ لانو تشوفي بالتلفزيونات انو المرأة عملت وعقدت والرئيسة المشتركة والرئيسة والرئيسة صدقيني هو الرجال نفسو اللي بيحطا ويشيلا يعني بس ديكور نقول مساواة بين الرجل والمرأة مافي مساواة بينهم على فكرة بس هيك مظهر حضاري يعني نبرز للعالم نحن حضاريين.»**

ووافقتْ «شيلان» معظم النّساء ممّن قابلناهنّ، بأنّ التّغيير ليس بجذريّ وليس بواعٍ وأنّه قد يتغيّر بأيّ لحظة، **واستخدمتْ معظمهن كلمة «تغيير ظاهريّ وليس حقيقيّ» كوصفٍ للتّغيرات الّتي تحدث على أدوار المرأة في المنطقة**، فبعضهنّ يرين أن التّغيير جاء دون تخطيطٍ وبدفعةٍ واحدةٍ دون تدرّج، فلم تكتسب النّساء الوعي الكافي لاستقبال هذا التّغيير والتّفاعل به بشكلٍ صحيح. وأخرياتٌ يرين هذا التّغيير غير صحّيّ في معظم أجزاءه لأنّه مربوطٌ بالسّلطة العسكريّة الموجودة حاليّاً، وأنّه مسموحٌ لبعض الفئات الّتي تثبتُ ولاءها للسّلطات أكثر من غيرها، فمثلاً إحدى النّساء حاولتْ أكثر من مرّةٍ ترخيص منظّمتها النّسويّة إلّا أنّها قوبلتْ بالرّفض وأنّ السّبب هو محاولة تسييس هذه المنظّمة الّتي تريد مؤسّستها أن تبقيها مستقلّة.

وأضافتْ بعض النّساء أنّ التّغيير الحاصل تجاه المرأة حاليّاً في الحسكة يطال هذه المنطقة دون سواها، وبالتّالي لا يمكن إسقاطه على المرأة السّوريّة في جميع المناطق وهنّ يأسفن لذلك لأنّهنّ يعتزّن بانطلاقة المرأة السّوريّة في كثيرٍ من المناطق السّوريّة في بداية الثّورة ويأسفن لأنّ هذه الانطلاقة لم تستمرّ بعد كلّ ما تعرّضت له المرأة من ويلات الحرب والتّهميش، ويعتبرن أنّ التّغيير الحقيقيّ يجب أن يكون شاملاً لجميع النّساء في سوريا كي يُعتبر تغييراً حقيقيّاً أو فعّالاً.

وتشير «شلير، 44» إلى بعدٍ آخر قد يعيق التّغيير الشّامل وهو انفصال الحركة النّسويّة السّوريّة في الخارج عنها في الداخل:

> **«بس في نقطة بالحركات النسوية اللي صارت برات سوريا ما اشركوا السوريات اللي ضمن البلد يعني تفردوا بحالن يعملو مؤتمرات، تيجي بدن بحث يكلفو وحدة عمليلنا بحث من دون ما يشركوها بالقرار هون عنا بالداخل السوري.»**

لكنهنّ أضفن أنّه بالفعل هناك تغيّرٌ، وأنّ بعض النّساء الكرديّات في المنطقة قد دخلن معترك السّياسة والعسكرة ويعملن أيضاً في المجالات المدنيّة. وذكرن قوانين جديدةً تمّ إصدارها مثل قانون منع تعدّد الزّوجات[35]. وقوانين تتعلّق بالرّئاسة المشتركة بين الرّجل والمرأة. وعبّرت «جين،27» عن فرحتها برؤيتها لاختلاف استقبال النّاس لها كناشطةٍ إعلاميّةٍ، فحسب وصفها، أنّ هذا الدّور لم يكن مقبولاً لإمرأةٍ سابقةٍ، أمّا الآن فإنّ النّاس تشير لها بجدّيّةٍ على أنّها الإعلاميّة الّتي ستقوم بتغطية حدثٍ ما.

بشكلٍ عامٍّ، يمكن القول أنّ معظم النّساء في جميع المناطق قد وجدن أنّ التّغيير الحاصل في أدوارهنّ وأدوار النّساء اللواتي يعرفهنّ ما زال بين الإيجابيّ والسّلبيّ، فمن جهة التّغيير الإيجابيّ فهنّ يجدن أنّ حالة الثّورة والحرب جعلتِ المرأة ترى وتؤمن بقدراتها أكثر في مجالاتٍ متعدّدةٍ خارج وداخل المنزل، وقادرةً على اتّخاذ قراراتٍ كانتْ سابقاً للرّجل واستلام بعض الأدوار القياديّة في المجالات المدنيّة والسّياسيّة، وصار للمرأة مجال حريّةٍ في الحركة أكبر من الّذي كان ولو أنّه في بعض المناطق ينحصر ضمن المنطقة نفسها بسبب الحصار والانقطاع عن المناطق الأخرى. أمّا السّلبيّ فيها فهو يتعلّق بأنّ هذا التّغيير كان إجباريّاً لكثيراتٍ من النّساء بسبب أوضاع الحرب الصّعبة وأنّه أضاف أعباءً إضافيّةً على المرأة هي لم تكن مستعدّةً لها وأنّ بعض الرّجال تركن النّساء يقمن بكلّ الأعمال دون المشاركة بها. بل أضفْن أنّ الرّجل يدّعي تقبّل هذا التّغيير بحكم الظّرف وأنّ بعض الرّجال سيعودون إلى أدوارهم السّلطويّة مع تغيّر الحال، وأنّ كلّ هذا قد أتعب المرأة من عدّة نواحٍ وخاصّةً النّاحية النّفسيّة دون وجود جهاتٍ أو مصادر داعمةٍ لها.

ويبقى لنا بعد كلّ ما حلّلته النّساء عن واقعهنّ وهويّاتهن وتغيّر أدوارهنّ أن نشير إلى أنّ حالة الحرب تفرض تغييراً اجتماعيّاً، وأنّ قياس هذا التغيير في ميزان الإيجابيّ والسلبيّ هو قياسٌ غير حساسٍ للزمن والتفاصيل، ولاختلاف تجارب النساء. إنّما ما يجب فعله هو الاستغلال الإيجابيّ لفرصة التّغيير الاجتماعيّ الحاصلة حاليّاً لترسيخ تفصيلاتها الّتي تتطلّع النّساء لها دون سواها ضمن عمليّةٍ ممنهجةٍ ومستمرّةٍ تضمن بقاءها، بل تطويرها، والتّفاوض عليها الآن وبعد انتهاء الحرب[36].

35 ننصح بالإطلاع على المصدر الإعلامي التالي https://snpsyria.org/?p=7391

36 ننصح بقراءة بحث " تمكين المرأة في الأسر السورية اللاجئة في لبنان أوريليا شترايت ((Streit Aurelia الوارد في الورقة الصادرة عن منظمة فريدريش ايبرت و مساواة/ مركز دراسات المراة بعنوان " مشاركة النساء في السلام والأمن والعمليات الانتقالية في العالم العربي" الصادرة في تشرين الثاني/نوفمبر 2017. حيث يوجد شرح عميق لفكرة التغيير الاجتماعي ضمن سياق معين وهو التهجير الجندري إلى لبنان، وكيفية العمل على استدامة هذا التغيير.

وجوه وتصنيفات العنف كما تراها النّساء

اعتدنا أن نقرأ عن العنف الجنسيّ أو العنف المبنيّ على النوع الاجتماعيّ بما يتضمّنه من مواضيع ترتبط بالعنف الجنسيّ والجسديّ ضد النّساء عند البحث عن آثار الحروب والنزاعات والعنف المتولّد فيها ضدّ النساء. وبالطّبع إنّ هذه الموضوعات شديدة الأهميّة وواضحةٌ المعالم في بيئاتٍ تفوح منها رائحة العنف كيفما التفتنا وأينما ذهبنا. وبالعودة إلى سياقٍ كالسّياق السّوريّ، نجد أنّ العنف متأصّلٌ فيه في جميع زوايا الحياة اليوميّة حتّى قبل الحرب. فهذا البلد الّذي نال قسطاً كبيراً من الرزوح تحت ظلّ الاستعمار، ثمّ عاش ناسه بعد الاستقلال 1946، حياةً سياسيّةً واجتماعيّةً واقتصاديّةً مرتبطةً مع سياسات ما بعد الاستعمار(post colonialism)، الّتي ترعى العنف الّذي تولّده سياسات الحكومات الوطنيّة الجديدة خاصّةً الديكتاتوريّة منها، فنخرج جميعاً من عنفٍ إلى آخر، نلمسه في الحياة وفي الشارع وفي الأسرة وفي التّعليم وفي العمل[37]... إلخ. إلّا أنّ الحروب والنّزاعات تخلق مساحاتٍ جديدةً لأشكالٍ من العنف لم تكن سابقاً، كالقصف والتهجير والفقد والنزوح والجوع والعلاقات.. إلخ. فتتفاعل دوائر العنف وتتوالد وتؤثّر بكلّ من يعيش ضمنها.

إنّ العنف الّذي تعانيه وتعيشه النّساء في الأوضاع المستقرّة نسبيّاً -أي قبل الثّورات والحروب- يختلف في تفاصيلٍ كثيرةٍ عن تلك الّتي يواجهها الرجال. فهناك عنفٌ مبنيٌّ على تصنيفها كأنثى وكإمرأة في المجتمع، عنفٌ يأتي من هيكليّات القوّة الخفيّة والواضحة في المجتمع والسّلطة التي تتموضع المرأة ضمنها وتتلقّى العنف وتتعامل معه بمختلف أشكاله ودرجاته، من عنف الأسرة وعنف الحركة كالأماكن الّتي يُسمح أن تكون فيها وتلك الّتي لا يجب أن تكون فيها وعنف المجتمع وعنف المؤسّسات وعنف الخيارات المتاحة لها وعنف التّبعيّة للآخر والّذي هو الرّجل في أغلب الأحيان والعنف الجنسيّ والجسديّ واللّفظيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ والكثير من أشكال العنف الّتي كلّما غُصنا في أعماق الدّوائر والعلاقات الّتي تعيش المرأة ضمنها وتولّد البعض منها، وجدنا العنف يتراقص في كلّ زاويةٍ وفي كلّ تفصيلٍ منها.

ثمّ تأتي الثّورات والحروب الّتي يتعاظم فيها العنف بجميع أشكاله على الجميع؛ فالرّجل يعيش أشكالاً جديدةً من العنف ويعاني منها وينخرط في بعضها، وكذلك المرأة، لكن بأشكالٍ مختلفةٍ تنبع من كونها إمرأةً ومن نظرة المجتمع والعسكرة إليها كإمرأة، وأحياناً نظرتها لنفسها على أنّها إمرأة.

حتّى الاستراتيجيّات العنفيّة الّتي تتبنّاها الأنظمة والسّلطات في الحرب تتمركز، حول جنس ونوع الشخص الاجتماعي مثل سياسات التّعذيب والتّهديد الممارسة في المعتقلات وخارجها وتعاملات المجتمع المختلفة للمرأة المعتقلة عن الرّجل المعتقل[38]، والكثير من الأمثلة على ذلك الّتي لن نذكرها الآن، بل سندع النّساء ممّن قابلناهنّ ليتحدّثن ويحلّلن العنف المحيط بهنّ بطريقتهنّ الخاصّة.

37 للاطلاع على تأثير سياسات الاستعمار وما بعده على الشعوب , وعلى تكريس العنف، ننصح بكتاب The Wretched of the Earth للمحلل النفسي والفيلسوف السياسي Ibrahim Frantz Fanon

38 ننصح بقراءة بحث "أصوات في مقاومة الصمت" كتابة وإعداد: جمانة سيف، وجدان ناصيف 2020 https://sl-center.org/wp-content/uploads/2020/03/WORDS-AGAINST-SILENCE-ARABIC.pdf

أحاطت وجوه العنف على اختلافها بمعظم الكلمات التي قالتها النّساء خلال المقابلات. على الرّغم من أنّنا خصّصنا فقرةً كاملةً للحديث عن العنف بالتّفصيل مع كلّ إمرأة، إلّا أنّ العنف كان متواجداً في معظم الفقرات؛ في الحديث عن الأهداف والأحلام الضّائعة وعن آمال التّغيير التي لم تتحقق وفي وصف وسرد حالات الاعتقال والتّعذيب الّتي تعرّضن لها والألم الجسديّ والنّفسيّ الّذي تحمّلنه والحصار وقسوته والتّهجير والنزوح واليأس والتّرقّب والخروج من سوريا وتحليلات سيناريوهات العودة إليها وفي وصفهنّ لدوائر الأمان المكسورة وغياب الأهل والأصدقاء وفي وصفهنّ لأصوات الطّيران والتّفجيرات وفي حديثهنّ عن المداهمات من قبل النّظام وفي خوفهنّ الباقي داخلهنّ مما فعله أعضاء تنظيم داعش والمشاهد والمشاعر التي عاشوها.

في سردهنّ عن القنّاص، وكيف رتبنّ حياتهنّ اليومية وبقائهنّ أحياءً بناءً على استراحة القنّاص، أو دخوله الحمام. في الطّلقة الثّانية الّتي أطلقها القنّاص على المرأة الّتي أصابها بطلقته الأولى قبل ربع ساعةٍ، فماتت، حتى أنّني شعرت به يختبئ بين الصّفحات والكلمات وفي أصوات النّساء.

في الاعتقال الّذي وصفْن فيه تفاصيلاً هي الجحيم لكلّ أنثى، شاركن معنا خليط مشاعر الخوف والرّعب والصّمود، عن الجسد الذي لم يبقَ فيه مكانٌ لتحمّل الألم؛ أن تكوني أنثىً في مكانٍ لا يعترف فيكِ إلّا جسداً ورقماً، أن يصادف موعد دورتك الشّهريّة في يوم الاعتقال، أن يُعامل جسدك كآلةٍ في التّعذيب الجسديّ والنّفسيّ والجنسيّ، وكرقمٍ في الزّنزانة والتّحقيق.

عن موت الابن والأب والأخ، عن آخر مشهدٍ لذلك الغالي على القلب، عن آخر كلمةٍ وحركةٍ قالها، عن آخر غرضٍ لمسه بيده. عن عدم القدرة حتّى بالاحتفاظ بشيءٍ يخصّه، فقد حان وقت النّزوح.
عن رحلة التّهجير القسريّ من مكانٍ التصقت الرّوح والجسد به، مكانٌ عاش ذكرياتكِ في الحصار أكثر منك، عن النظرة الأخيرة الّتي لم تستطيعي أن تقومي بها إلى ذلك المكان بسبب القصف والذّعر والخوف، عن استغلال الظّرف من قبل الكثيرين، عن النّوم في العراء، والانتقال إلى المجهول المرفوض مهما كان، عن عدم استيعاب أيّ شيءٍ، عن قدرتكِ على النّهوض مرّةً أخرى مع كلّ هذا الثّقل لتكملي مسيرتكِ الّتي تترامى فيها عليكِ ألقاب النّازحة واللّاجئة من كلّ صوب.

قامتِ النّساء في الفقرة الخاصّة بالعنف، بتحليل العنف بشموليّةٍ وتفصيلٍ ملفتين، دخلن فيها إلى معانٍ وتفاصيلٍ للعنف على مستوياتٍ مختلفةٍ ومتداخلةٍ، فقرّرنا أن نذكرها كما هي، وألّا نرفق بها أيّ تحليلٍ إضافيٍّ عدا بعض التّرتيبات والتّصنيفات اللازمة. **ما كان لافتاً في تحليل وتعريف العنف، هي الطّريقة الّتي كشفن فيها عنه في كلّ تفصيلٍ في حياتهنّ كنساءٍ وسوريّاتٍ وفي حياة من حولهنّ من رجالٍ وأطفالٍ، بل أنّهنّ وعلى اختلاف شخصيّاتهنّ وتجاربهنّ وسياقاتهنّ، قد أضفْن معانٍ وتأثيراتٍ للعنف جديدةٍ واستخدمنّ مصطلحاتٍ لوصفه لم تكن متداولةً في مجتمعنا سابقاً.** كان الصّمت هو الطّاغي، والحديث عن العنف من قبل النّساء بشكلٍ خاصٍّ كان حديثاً كامناً، إنْ ظهر فله عواقب مجتمعيّة خاصّةً فيما يتعلّق بالحديث عن العنف الجنسيّ والجسديّ والأسريّ[39].

لقد سألناهنّ؛ ما هو تعريف العنف وأشكاله كما ترينه أنتِ كإمرأة؟ وما تأثيره عليكِ وعلى كلّ ما يتعلّق بكِ على جميع الأصعدة؟ ولم نوّجه باتجاه شكلٍ معيّنٍ للعنف، ولم نعطِ مصطلحاتٍ جاهزةً لأنّنا أردنا أن نسمع تحليلاتهنّ الخاصّة دون أيّ تدخّل.

39 ننصح بقراءة ملف: الدائرة المفرغة للعنف، إنتاج شبكة الصحفيات السوريات، على موقع الجمهورية https://www.aljumhuriya.net/

يغيب في حديث النّساء ممّن قابلناهنّ ذكر عنف وتمييز القوانين المحليّة المبنيّ على الجنس مثل قانون الأحوال الشّخصيّة وبعض موادّ قانون العقوبات وحتّى بعض موادّ الدّستور[40]، كذلك الأمر بالنّسبة للقوانين الدّوليّة.

مثل هذه القوانين قد تمّ ذكرها في فقراتٍ أخرى عند الحديث عن العدالة مثلاً والعودة إلى سوريا، وقد يكون أحد الأسباب هو عدم اطّلاع النّساء على هذه القوانين، وهذا واردٌ جدّاً بسبب عدم طرح مثل هذه المواضيع للنّقاش العام أو تحت إشراف جهاتٍ مدنيّةٍ قبل عام 2011، وعدم شموليّة طرحها بعد عام 2011، وتغييب هذه المعلومات عن معظم النّساء اللواتي لا يدرين بها إلّا عند تنفيذ حكمٍ مبنيٍّ عليها. وقد يكون السّبب هو عدم أهميّة مثل هذه القوانين في حالة الفوضى الّتي تعيشها المرأة في المجتمعات والسّياقات السّوريّة، إن كانت ضمن مناطق سيطرة النّظام السّوري أو خارجها خاصّةً المحليّة منها، وفقدان النّساء لأيّ أملٍ أو ثقةٍ بالقوانين الدّوليّة المتخصّصة أو الموجّهة لدعم النّساء.

تعريفات النّساء للعنف

فيما يلي بعض التّعريفات الّتي ذكرتها النّساء للعنف، قد تتشابه في بعض تفاصيلها وتختلف في تفاصيل أخرى، إلّا أنّنا أردنا ذكرها كما هي، وبالطّريقة واللّغة والمصطلحات الّتي استخدمنها لما لها من دلالاتٍ ومعانٍ مختلفة.

> **«العنف انك تخافي من الشخص. اي شخص بتخافي منو او بتعمليلو حساب هاد عنف. وأسرنا ملانة هيك. العنف انك تعطي اوامر للشخص لينفذ، تلزميه بشي، هاد عنف، عطي بس مساحة خيارات. انا رح ابدأ من الطفل الي منقللو بدي ادبحك، بدي عذبك. هاد عنف، انا عم بلشلك بالنقطة الصغيرة بالمجتمع ناهيكي عن عنف القنابل والصواريخ هي عنف رهيب.» (مها، داريا، لبنان)**

> **«هو اعتداء، ايذاء نفسي او جسدي او معنوي مو بالضرورة ضرب وعنف جسدي لا. ما بعرف ليش كل ما بينحكى عن العنف المنزلي ما بينذكر إلا الضرب، طيب وإجبار المرأة إنو تسكت، أو ما تعطي رأيها أو تعمل شغلات ما بدها إياها، هاد مو عنف؟» (إنانا، جنوب سوريا، أوروبا)**

> **«العنف هو الايذاء، اي سلوك بيحدث ضرر او مشاعر سيئة لاخر او للشخص نفسه كمان ، في سلوكيات بيكون مرضي عنها من قبل الاطراف المعنّفة متل الأمور الجنسية للمرأة بشكل خاص و احيانا بعقد شرعي كمان. هلق صارت نظرتي للعنف اوسع صرت بشوف حتى الافتراضات عنف، الاشياء اللي بفكرها عن الناس بدون ما إتأكد منها هيي عنف.» (غيثاء، دمشق)**

40 ننصح بالإطلاع على بحث: المشاركة السياسية للمرأة السورية بين المتن والهامش للباحثة لمى قنوت، الجهة الناشرة: اللوبي النسوي السوري، 2017. وبالتحديد الفصل المخصص عن العنف، والذي يُفصل تمييزية القوانين المحلية في سوريا بناء على الجنس وبالتحديد ضد المرأة السورية.

«تعريف العنف كتير صعب، بس برأيي انو بالأساس هو الاذية. شخص يؤذي شخص. عم تتعدى ع حدا بالضرب اوبالكلام او بالتهديد. أي سلطة الشخص بيعطيها لنفسو ع الاخرين هي عنف هي جزء من هي المنظومة يلي اسمها العنف.» (نسيم، دمشق، أوروبا)

«حسب العنف، انا بعرّف العنف انو حدا يضرب حدا او يئذي حدا. وفي العنف اللفظي يلي انا بقول انو احيانا كلمة بتدبح جمل. العنف، بكل مكان في عنف بس بطريقة مختلفة، ممكن تقلك مثلا السيدة المتزوجة اذا زوجا منبها على شي وهي بتعمل عكسو، بتقلك يلا هلق باكل كفين ويلا. بتحسي العالم تمسحت. بالنسبة إلي العنف هو الاستخدام السيئ للسلطة، مثلا انا بأسرة وحاكم هالبيت وقت حدا بيعمل شي ما بعالجو بالحوار بالعكس بيضربو ما بفهمو الغلط لا بيضربو. العنف هو جريمة كبيرة ومابعرف كيف بدو يصير للمعّنف قانون يأدبو. المغتصب، بخلو يتزوجها للبنت اللي اغتصبها، وهي البنت بتضل معنفة طول عمرها عندو وعند أهلها كمان ويمكن اهلها يقتلوها ويقبروها تحت التراب. بحس مافي قانون يحمي السيدات وكل السيدات بالوطن العربي معنّفات من وقت بيولدو.» (حور، القصير، لبنان)

«العنف هو كل شي عم نعيشه، هو الكلام القاسي اللي عم يتوجه لالنا، وهو الخوف من كل شي، وهو صعوبة الحياة كل يوم. العنف اللي بحس فيه وصلني لمرحلة عدم الاكتراث لأي شي، كل شي حوالينا عنف، على كل الاصعدة، بحس حالي ماعاد اتاثرت متل قبل، مو بكل شي بس بالعموم، خلاني صير اقسى، لسا في مواقف بتهزني بس قليلة، العنف هو اي شي بيخوف او بيقهر الانسان.» (دهب، دمشق)

«نحنا بسوريا الشي يلي متعودين عليه ومتأقلمين معه هو العنف من قبل الاستاذ ومن قبل يلي اكبر ويلي اكبر ويلي اكبر. الشعب السوري متاقلم عليه وكانه اذا ما مورس عليه عنف بيسعى هو ليمارسه هيك طبعنا.» (نسرين، غوطة شرقية، تركيا)

«مافي عنف اكتر من كل شي عم نشوفه وعايشينو، اهم شي صاحب البيت اللي بيشوفك ست و بيتمادى عليكي، اي شخص ممكن يحكي عليكي كمرأة عاملة، انو بتروح وبتجي او هالقصص، اكبر عنف انو الناس ما تقدر شو عم تعملي، التمادي عليكي وقت تحتاجي حدا، انا عايشة العنف من كل اشكاله و الوانه، من الخيانة للايد الطويلة للسان الطويل واتحملت كرمال ولادي.» (يارا، دمشق)

«العنف هو القصف والضرب والطيران والصواريخ اللي كانت تنزل فوقنا خلال اربع سنين. وداعش كلها خوف بخوف وموت.اللي مايقتله الطيران داعش تقصه وتقتله.» (ربا، الرقة)

«العنف هو كل شي بيخوف ، لما بتخافي من الأصوات، من المرض، من قلة الخدمات، من اي حدا بيحسك مختلفة وما بيحبك هيك من اول دقيقة، وانو ينفرض عليكي شي ما بدك ياه.» (أمل، دمشق)

«هوي اي انتهاك. انتهاك انوثتك وحريتك وابسط حقوقك.» (ماجدة، حلب، تركيا)

«هلا العنف يعني مصطلح واسع المعنى. أي شي انتي بتعيشيه مابدك ياه هاد يعتبر عنف، أي تفصيل بيمر بحياتك أي تغيير بيصير انتي مابدك ياه وصار رغماً عنك هاد يعتبر عنف، بتتعنفي لما بتعيشي بمكان مابدك ياه، لما أنا بضطر اطلع من بيتي فهاد عنف يمارس علي، طبعاً في أنواع تانية من العنف، العنف اللي بيصير ضد المرأة و ضد الطفل لكن العنف اللي تولد بسوريا هو شي انفرض على العالم لهيك أي شخص تأذى ولو نفسياً طبعا ما رح نحكي عن اللي فقدوا حياتهم والأذى الجسدي واللي فقد بيته طلع من إطار العنف وصارت جرائم حرب، بس انا بعتبر اذا عملت شي ما بدي ياه فأنا معنفة.» (جين، دمشق، الحسكة)

«لمّا كنت آكل قتلة من معلمتي بالمدرسة ليش احكي كردي، وبهدلة من أهلي بالبيت، هاد أوّل أشكال العنف.» (هيفين، عفرين، تركيا)

«العنف هو داعش واللي شفناه منها، رجموالناس، وامراة كانت ترضع طفلها بالشارع قطعولها صدرها والنساء اللي يشتغلن معاهم كلهن ضخمات ويحملن بايدهن عصاية ويضربن المراة اللي مو ملتزمة بلباسها الشرعي او طالعات عيونها ويشحطنهن بالشوارع مشان تروح تشتري لباس شرعي. العنف اننا مانقدر نحصل على حق الخبز، اذا اشتغلنا اكلنا واذا ما اشتغلنا نظل جوعانين. العنف انه بعد ما ينطرد النظام من مدينتنا وهو مذلول يرجع يفوت عليها ويذل اهلها.» (سلام، الرّقة)

«العنف بحسو بالكبت اللي عايشينو، صار بارود متل على نكشة بدنا نعيط كانو بس نريد نعلي صوتنا ..ليش؟ من كتر الضغط النفسي وين بدنا نفضي الضغط النفسي؟ برا مافيكي تحكي ولا كلمة لا سلبي ولا ايجابي مايصير تتدخلي بأي امر سياسي. يعني انت عم تتفرجي على التلفزيون تقرأي تكتبي لحالكي ماعم تشاركي، هاد الرأي للغير، هاد كتير عم يأثر على النفسية يعني انا تقريبا دايما بقول اذا كان في اخصائيين نفسيين يمكن كنّا كلنا لجئنا لاخصائيين نفسيين هاد بسبب الضغط والتنفيس مافي حدا يقدر يحكي... نتيجة شو هي؟ نتيجة الوضع الاقتصادي الاجتماعي والسياسي بالدرجة الاولى لانو كل شي صار معنا كان نتيجة الوضع السياسي بالدرجة الاولى.» (شيلان، الحسكة)

«بالحياة بشكل يومي عم نشوف عنف، العنف مو بس عنف جسدي يعني في عنف لفظي وفي لما حدا يتوجهلك بكلام بتحسي بإهانة أنا كفتاة لما مثلا اشتغلت بالوسط الاعلامي تعرضت لكلام يعني تعنفت أكيد تعفنت تعنيف لفظي فيني قلك تحرش. انا كفتاة اشتغلت بمجتمع على اساس منفتح وبقدس حقوق المرأة والمراة عندهن كل شي.. تعرضت للعنف النفسي واللفظي فلما بتشوفي حالك بهيك مجتمع بتشوفي في كتير اشياء ما بتناسبك.» (جيلان، الحسكة)

هذا ما قالَتْه النّساء عن العنف كتعريفات، حلّلن بُنى العنف داخل الأسرة وفي المجتمع وفي الحرب والسياسة، أوضحن لنا أشكال العنف الّتي ولّدتها الحرب وتأثيرها عليهنّ وطريقة تلقّيهنّ لها. إنّ كلماتٍ مثل «معنّفة» و»تعنيف» لم تكن مستخدمةً أو حاضرةً في اللّغة اليوميّة أو في النّقاشات قبل عام 2011، لا بين النّساء ولا الرّجال في معظم المجتمعات في سوريا. لم تكن جدالات وتحليلات العنف واردةً كما سمعناها من النساء هنا. بالطّبع إنّه أثر التّجارب القاسية والحرب والقمع الذي عشنه كنساءٍ، لكنّه أيضاً يدلّ على محاكماتٍ وجدالاتٍ جديدةٍ تطوّرتْ داخل الكثيرات من النّساء السّوريّات حول تموضعهنّ في دوائر العنف الّتي تحيط بهنّ وموقفهنّ منها، فعدا عن عنف الحرب المباشر، قد ذكرن كثيراً العنف النّفسيّ، والعنف الموجّه لهنّ كنساءٍ بشكلٍ خاصٍّ، كإجبارهنّ على الفعل وإسكاتهنّ عن الكلام والتّحرّش اللّفظي وغير اللّفظيّ وعنف العرقيّة وعنف الكبت وعدم القدرة على التّعبير وعنف الحياة المليئة بالمسؤوليّات والقليلة بالموارد.

وفي مستوىً آخر، صنّفت النّساء العنف وخصّصن حديثهنّ عن أشكالٍ معيّنةٍ من العنف، واستخدمن مصطلحاتٍ مثل «عنف الحنين». عنف الحنين مصطلحٌ تكرّر مع أكثر من 10 نساءٍ يعشْن في سياقاتٍ مختلفةٍ ويختلفْن بكثيرٍ من التّفاصيل والتّجارب. لقد ألّفن هذا المصطلح وعرّفنه ولقد أضفْن مصطلحاً جديداً للغتنا ومعرفتنا. إضافةً إلى تصنيفاتٍ للعنف استنبطنها من الذّاكرة أو من اليوم المعاش أو من التّجربة الطّويلة الّتي خُضنها في هذه الحياة.

عنف الحنين

«اكثر عنف هو عنف حنيني لخالي اللي مات تحت القصف.» (سناء، الرقة)

«طيب شو احكيلك عن عنف الحنين، هو قاتل، كتير صعب انك تفقدي ابنك بصراحة ابني اغلى من زوجي عندي وكتير بنقهر كتير بزعل كتير ببكي شب صغير راح بهي الطريقة القاسية.» (مها، داريا، لبنان)

«في عنف تجاهي هون بالمانيا في عنف بحس في هو عنف الحنين لاشخاص اللي كانوا حولي. كل ساعة بواجه هاد الحنين و كتير سلبي التاثير علي. يعني مثلا لمّا أكون مريضة ما جاي عبالي اطبخ وزوجي مو ع بالو يطبخ، بقول انو لو كنت بسوريا وامي موجودة او اختي موجودة بروح لعند امي وبتكون الطبخة جاهزة او لما بفيق بكير مع ابني بقول لو امي هون كنت حطيتو عندها ورجعت نمت او درست او او.. انا مرت فترة علي كنت عم فكر جديا اني ارجع ع سوريا لان حسيت اني مرهقة، تعبت ومو قدرانة كمل ومو قادرة استمر.» (روز، اللاذقية، أوروبا)

«العنف بصراحة بدك فلافسة ليعرفو العنف مو انا. احيانا كلمة بتنقال بتكون عنف. النظرة بتكون عنف، يعني امي كانت تقلنا النظرة الطويلة لشخص عندو مشكلة هاد عنف، والحنين للاشخاص هاد عنف نفسي.» (نور، داريا، لبنان)

عنف اللجوء والنزوح

«لو ما كان اخي واقف معي كان مشكلة، خاصة كنا بوقت على أساس ما ضل نظام، صاروا يقولو انو انتو نزحتو لازمكن مين يستر عليكن. يعني نحنا نزحنا، هاي كلمة نزوح صارت عار يعني بهالمبدأ هاد، يعني كانوا يقولو للوالد كانت عنا بنتين بس متزوجات نحنا ستة بنات مع الوالد و الوالدة يقولوا للوالد معك ست بنات لك زوجن اشو انتي طالع من بيتك وما عندك لا بيت ولا شغل ليش قاعد، ستة لك زوجن و خلوص.» (كندة، ادلب)

«هلئ العنف مو بس انك تضربي التاني في تعنيف اكبر من هيك بتمارسيه بس هو مو ظاهر مو ملموس، هوي معنوي. هلئ انا بعتبر حالي بحالة عنف، انا معنّفة لكن معنّفة معنويا. لما بتتركي بلدك وتنزحي هاد تعنيف هاد اعتداء عليكي، لما تغيري اهدافك وآمالك هاد عنف، لما حدا بيستغلك هاد عنف، مو شرط العنف ان الواحد يجي يضربك هاد العنف الجسدي يمكن يآلمك يوم يومين ويروح لكن العنف النفسي بيبقى اكتر، العنف المعنوي بيبقى اكتر.»(ريحانة، إدلب)

«وانا من هدول الاشخاص يلي دايما بعنف نفسي وبضل بطلب منها شغلات فوق الحد، هاد عنف. الحياة يلي هلق نحنا عايشنها فيها عنف وجودنا بلبنان هو عنف مثلا لما بتطلعي بالفان وبتصيري تسمعي كلام عن السوريين هاد عنف وقمة العنصرية وبتبقى معلقة ببالك وبكون موقف الواحد ضعيف لان مافيي رد وبتحسي شي مزعج إنك ماتردي على كلمة توجهت بحق سوريا او بحق شعب كامل والنظرة النمطية عن سوريا وبتحز بقلبك انك ماقدرتي ادافعي عن حقك وحالك.» (نور، داريا، لبنان)

عنف العلاقات بعد الثورة وخلال الحرب

«بسبب اختلافنا الفكري ناحية الثورة ومع اني حاولت ما اظهرلها بس هي حست اني معارضة للنظام وهي مؤيدة ووقت كنا نتهجر او ننزح ما كانت تتاثر بالعكس كانت توصلنا رسائل انه تستاهلون هذا انتو جبتوه لحالكم واختلفت العلاقة كثير حتى مرة توفو اربعة من ولد عمي انفجر عليهم لغم ايام حصار منبج كانت طريقة تعزيتها جدا سيئة وبالاخير انقطعت علاقتنا.» (سراب، حلب،الرقة)

«بفترة اقامتي باللاذقية سجلت ابني بالمدرسة تمارس عليه وعلينا التنمر والعنف بس لاننا من الرقة . مرة احد الطلاب قالوله انت من الرقة بكرة ابوي رح يسجن امك وابوك ويسجنك وظل خايف من هالقصة. والامور المزعجة اللي كنا نسمعها نحن جبنا الدواعش والاجنبي لو مو انتو دليتو ودللتوه شلون رح يعرف بالبلد. عدا العنف اللي شفناه من داعش وعدا اننا تهجرنا من بيوتنا وماعاد ظلينا بنفس المستوى الاجتماعي اللي كنا عايشين فيه.» (ربا، الرقة)

«كان التعنيف قبل الثورة أسري أو مجتمعي وبعد الثورة انضاف الو تعنيف الو علاقة بموقفي من النظام. خاصة مع ازدياد اختلافي مع المجتمع. قبل كان موضوع تقاليد، بس بعد الثورة صار اختلاف بالمبادئ وبطّل الموضوع جدلي صار حدّي أكتر، وصار في نبذ من أقرب الناس إلي.» (نرجس، اللاذقية، أوروبا)

«أشكال العنف اللي شفتها برا البيت كانت كتير صادمة، يعني وجوه العالم اللي كانو يعتقلو كانو يشلحوهون تيابون وتضربون كل الحارة. الدخنة اللي بتطلع من المناطق اللي حولي يعني في ناس عم تحترق. العسكرة كانت معرفة كل شي. على مستوى تاني العيلة، كانوا يهددوني انو راح يتركوني المعهد اذا حسوا انو الي اي نشاط. كنت أحسد الناس اللي هنن وأهلون معارضين. وكنت احسد الناس الأغنياء لأنو ما عندون أسئلة مادية متلي، لو معي مصاري كنت تركت أهلي واستأجرت. امي طلبت مني بطل نام بالبيت خوفا من هجوم داعش واغتصابون الي، بعتتني لبيت خالتي ل 3 شهور. مع انو امي امراة متلي، بس كانت تقول انو أنا ما لازم عيش هي التفاصيل.» (عتاب، جنوب دمشق، أوروبا)

«بالمرحلة الأولى لاحظت انو العلاقات الاسرية اختلفت مثلا الاب بطّل يقدر حتى يحكي مع ابنو المراهق أو بنتو. بقولو اذا بتضغطو علينا منروح لعند قوات سوريا. حتى الأغاني الكردية الدارجة بتشجع على القتل والدماء بتحكي عن كردستان. كردستان حق وبدي يصير عنا وطن نحكي في بلغتنا ونكتب بس مو بهالعنف.» (سوسن، قامشلي، أوروبا)

عنف الأسرة والمجتمع المبنيّ على كوني أنثى وامرأة

«العنف: اول شي بيخطر ع بالي انو لما كنت صغيرة وروح العب بالشارع وارجع عالبيت وأخي الكبير يلكشني بشي ضربة او شي شغلة. ما كانت كتير جدية بس كانت تعملي خوف علما انو هو اكبر مني ب 12 سنة وهيدا الموضوع وانا كتير صغيرة بعدني ما دخلت ع المدرسة.» (ناديا، جنوب سوريا، أوروبا)

«العنف اللي مسني بشكل مباشر هوي العنف الاجتماعي صرت اتمنى صير شب حتى اتجاوز هيدا العنف انو انا انثى ف ايمتى لازم ارجع وشو لازم البس.» (إنانا، جنوب سوريا، أوروبا)

«عند ذكر العنف اول شي يخطرلي: اسكتي انتي شنو مفهمك؟ انا ماتعرضت لعنف جسدي، لا ضرب ولا شتم، لكن هيك اخوتي الشباب كانو يقولولي بعدين زوجي وقت يقول لا تتدخلين بامور اكبر من حجمك يعني واذا مهندسة تبقين مراة وتبقين انثى وتظلين ماتفهمين مثل الغير هذا اسوء عنف تعرضتله. لاني عادة ما احب حدا يسكتني واحب اعطي رايي واناقش حتى لو خاطئ.» (لارين، الرقة)

«العنف كتير بشع وعم نشوف كتير كمان لهلا عم نشوف رجال بيضربو نسوان مع انو وصلنا لقرن انو صار العنف الجسدي ضد المرأة عيب. كل شي عنف، احيانا العنف الاجتماعي انو كمثال ما بيخليكي تحكي قدام الضيوف انو خلص انا الرجال لازم انا اعطي رأيي هاد عنف اكبر من العنف انو يضربك.» (آفين، عفرين)

«العنف اللي مارسوا عليي أهلي والمجتمع لأني حبيت شب من غير دين، هاد العنف اللي اضطرني أهرب من بيت أهلي، يعني مافيني كون مع الشخص اللي اخترتوا ومع أهلي بنفس الوقت؟» (روز، أوروبا)

«العنف كتير كتير قصص يمكن اكتر عنف بعدو موجود وبعدو مأثر علي هو عنف امي علي كانت امي كتير عنيفة وهيدا العنف كان الو كتير أثر كتير سلبي علي ولهلق لهلق امي ما بقدر ضمها وما بقدر بوسها و لهلق عندي مشكلة مع الضمة و يمكن لاي حدا ما بحب حدا يضمني. كان فيه عنف مجتمعي لانو ابوي كان معتقل كانت نظرة الناس النا كتير بشعة كنت حس انو منبوذين و امي كانت كتير قاسية علينا لانو كانت بحس انها مضطهدة و عم تفرغ غضبها علي غضبها من اعتقال ابوي غضبها من انها حملها كبير و غضبها من نظرة المجتمع و كنت انا الشخص يلي يتفرغ فيه كل هدون القصص.» (روان، اللاذقية، أوروبا)

«بعد الطلاق تمارس علي كل انواع العنف يلي ببالك عنف المجتمع اني مطلقة عنف الطليق لانو بكل وقت عندي تهديد انو رح ياخد بنتي مني وعنف القانون يلي كنت دايما ما اخد حقوقي منو بسوريا موجودة كل انواع العنف يلي ببالك ضد المراة وهو يلي بيغير حياتها من لما بتخلق للما بتموت كل شي منعملو مندفع عليه دفع ودايما نحنا عم نقاتل ودايما من شان ولا شي لان بالاخير نحنا منطلع الاشخاص السيئين والمجتمع هو يلي بدفعنا التمن.» (روان، اللاذقية، أوروبا)

عنف الحرب: العسكرة، الحصار، القصف

«شل القصف من حركتي كنت اتمنى روح على القطاع التاني من الغوطة الشرقية وما اقدر. بدي ارجع لاقي يابيتنا واقع يا حدا من اهلي ميت.. صار عندي عقدة نفسية وسببت عقدة نفسية لاهلي كنت قلن لاهلي ماحدا بيطلع برا البيت انا بشتري كل الاغراض وانتو بتبقوا انا ماحدا ورايي.» سببتلن عقدة. ماما مافي تطلع بنات اخي بس عل المدرسة احيانا اذا سمعت صوت طيارة بعيدة روح جيب بنت اخي من المدرسة تتضايق وتقللي: انت عم تحرميني من التعليم. ماعرفانين شو عم يصير جواتي.» (رند، الغوطة الشرقية، تركيا)

«ابني بنص الليل فتح البراد بده يشرب ضربوا عليه بالدوشكا فتحت الحيط انفجر البراد والفريزا صارو يضربوا فوق وتحت. طلعنا الساعة ٣ من البيت هادا شو؟ مو عنف كمان.» (سمر، جنوب دمشق، تركيا)

«الناس ما عادت ترحم بعضها، مثلا يكون ما عندي مي او سكر وروح أطلب من حدا عندو وما يعطيني، هاد بالنسبة الي عنف. لأنو هوي بيعرف انو بأي لحظة ممكن يموت بس ما بدو يعطي. كنت انا ابكي أحيانا بس أكل لأنو بعرف انو في ناس كتير جوعانة، وبنفس الوقت كان في ناس عندها كل شي فراريج، غاز، الفصائل كانت مخبية الأكل، مرة الناس عرفت انو في مخبأ وهجموا علي، يعني كل شي كان موجود ومخبى، قالوا انو للأيتام بس هوي كان لعيلهم. كانوا يوزعوا علينا شعير وعلف، أو البضاعة الفاسدة، ويخبوا المواد الباقية الهون. ما بعرف مين كان محاصرنا النظام او الفصائل؟» (لاما، الغوطة الشرقية، تركيا)

«قصف الطيران اعتبره عنف لان كنت انهار. وقت تضرب الطيّارة اقعد بزاوية صالون البيت واظل ارجف بقوة واشعر اي بيت امان اكثر من بيتنا. الشخص اللي طالعنا من اراضي داعش لاراضي قسد هو شخص استخدم الابتزاز واخذ مبلغ كبير مقابل كل شخص مشان يطالعنا.» (سناء، الرقة)

«العنف كل شي هالطيران هاد الشي كلو عنف نحنا قاعدين ببيوتنا مالنا علاقة لا بهود وبهود عدّونا إرهابيين كلياتنا، الطفل الصغير صار يخاف و يحكي بالطيارة ويحكي بالقذائف وكل حكيو هيك يعني هاد كلو عنف وضرر النا. صار الصغير فينا بيشكي متل الكبير هاد بيقول رجلي وهاد بيقول ضهري هاد بيشكي من عصبو وهاد من راسو. كان الصغير ما يقول عم يوجعني شي هلئ الصغيرين صارو مريضين من هني أطفال، كلياتا صارت مرضانة وما حدا صاغ، هاد معاق وهاد ما في الا كلو تعبان وكلو مرضان. من عنفن ومن هالشي يلي عم يعملوا فينا يعني الليل ما عم ناموا منام ومنحط راسنا على المخدة ونحنا عم نحلم بالطيارة. أحيانا منشوف بالمنام اجتنا الطيارة وضربت ورعب الأطفال بتفيق بتقلك هيك شفت بمنامي اليوم ان الطيارة ضربتنا وهدت بيتنا هاد بيقول يعني أي حياة كتير صعبة كلها خوف ورعب ما بئى في امان.» (ابتسام، إدلب)

«الأطفال صار عندن عنف بعد هالشي يعني صارو يشوفو القتل و الضرب يعني حتى العابن لعبن بتحسي عنيف بيصيرو بيلعبوا عم نضرب عالطيارة او على بعضنا بيجيبوا فرودي حتى الألعاب بالسوق كلها العاب عنف: دبابات، فرود، بواريد كلها عنف .هلئ بيجي العيد الولد بقلك بدي فرد و من أي فرد هاد الخرز يلي بيئذي يعني كل الأطفال هيك عندن هالعنف من المشاهد يلي عم يشوفوها. على الهواتف بيقلدوا أحيانا شوب يصير بيقلد الطفل اشو شاف بالتلفون اشو شاف مجازر كتير هدول الأطفال نحنا منعاني من هالشي ما منريد ولادنا هيك يصيروه العنف عندن ما منريد منريدن يلتهوا بالمدارس بالجوامع هيك يعني هلئ المدارس عم يروحو و يجو ما عم يفهمو شي و لا عم يستوعبوا اشو بيجي الفحص و المذاكرات حافظين أي ما في اهتمام عالسوا بالمدارس و لا دوام عالسوا عم يروحو يعملو فحص يا دوب الطيارة فوقن و بيضل بالنا مشغول علين.» (لينا، ادلب)

«بتخيل العنف هلق مارح قول على النساء لان هوي عم يكون على الرجال والنساء يعني اب مقهور اخدو بنتو على الحاجز هاد اكبر عنف، زوج مقهور لان تحرشو بمرتو مو قدران يرد شو بدك اكبر من هالأسى العنف يلي كان ع الرجال كان كتير كتير قاسي انا انطلبت على احد الحواجز اهلي هربوني العنف يلي شفتو انا بحصار مضايا التجويع كان كتنير قاسي قاسي انا ماعم احكيلك عن عنف القصف والعيشة تحت الردم شوفي قهر الرجال قهر الطفل انا مريت من حد ام حاطة طنجرة مي وعم تخلي البنت تلم حطب لتحطها تحتى انا استغربت وسألتا انو مافي اكل لي هيك عم تعملي قلتلي عم إالهي بنتي لتنام شوفي أقسى من هاد العنف.» (أماني، الزبداني، لبنان)

مواقف النّساء من العسكرة

عند الحديث عن العسكرة، أعطتْ النّساء تحليلاتٍ وآراءً من صميم السياقات الّتي عشنها، شرحتْ فيها النّساء مواقفهنّ من العسكرة والأسباب الكامنة وراء هذه المواقف، ولم يستخدمن مواقف جامدةً أو جاهزةً مثل: أنّ المرأة هي دائماً ضدّ العسكرة أو أنّها فقط مستقبلةً للعسكرة وغير متفاعلةٍ معها أو ضحية العسكرة. بالطّبع المرأة هي متضرّرةٌ دائماً من العسكرة والعنف وقد عبّرن عن ذلك في كثيرٍ من المقابلات، لكن ما أريد توضيحه هنا، أنّ كلّ إمرأةٍ كانتْ موجودةً عندما بدأتْ العسكرة وأنّها كوّنتْ رأياً معيّناً تجاهها، وتعاملتْ مع حدوثها ونتائجها وشرحتْ لنا تأثيرها عليها وعلى العلاقات الاجتماعيّة والمكان والأطفال. استبدلن جمود التّصنيفات الجاهزة بمرونة التّحليل الّتي تصف الواقع وتستنتج وتنتقد وتمدح أجزاءً منه. هناك مراجعاتٌ ذاتيّةٌ لكثيرٍ من المواقف الّتي كانتْ مع أو ضدّ العسكرة، وهناك عينٌ نقديّةٌ شرحتْ أسباب حدوث عسكرة الثّورة بشكلٍ خاصٍّ وانعكاساتها السّلبيّة. وبالطّبع هناك إيمانٌ كاملٌ بحتمية عسكرة الثّورة عند البعض، وقناعةٌ كاملةٌ بأنّ حمل السّلاح هو من قتل الثّورة عند البعض الآخر.

أعطت النّساء تحليلاتٍ مختلفةً عن أسباب عسكرة الثورة بعد سلميّتها في المرحلة الأولى، فالبعض أكّدن أنّ عنف النّظام هو السّبب الوحيد وأنّه هو من دفع بالثّورة السّلميّة بأن تصبح مسلّحةً. وأخرياتٍ أضفْن إلى ذلك أسباباً تتعلق بالتّمويل الخارجيّ، وأسباباً تتعلق ببعض المناطق الّتي خرجتْ بالسّلاح مباشرةً ضدّ النّظام. ثمّ ذكرْن الجدالات والنّقاشات حول حمل السّلاح من قبل الثّوّار في تلك الفترة، ومواقفهنّ من كلّ هذا. وكيف أثّرت عسكرة الثّورة على الشّباب وعلى النّساء وعلى الأطفال.

تقول «ناديا، جنوب دمشق»، أنّ النّظام السّوريّ استخدم كلّ الوسائل للدّفع إلى عسكرة الثّورة، فالعنف الّذي واجه به الشّعب، من رصاصٍ حيّ، إلى قذائفٍ وقصفٍ واعتقالاتٍ وذبحٍ وتصفيات، نتيجتها الحتميّة أن يدافع الشّعب عن نفسه ويحمل سلاحاً في المقابل. وتشاركها «نور» بجزئيّة أنّ النّظام هو من دفع الشّعب والشّباب إلى حمل السّلاح، لكنّها تضيف أنّ الخطأ كان في تقبّل الشّباب لهذا الاستفزاز، وحملهم للسّلاح، وتذكر نقاشاً قد جرى بينها وبين أخاها عندما قرر الانضمام للجيش الحرّ للدّفاع عن منطقة داريّا، حيث تطلب منه «نور» ألّا ينجرف وراء شبابٍ غير متعلّمةٍ لا تجد إلّا السّلاح طريقةً للدّفاع، فيواجهها أخاها بأنّها تقول دائماً عن الشّباب الّذين حملوا السّلاح بأنّهم غير واعين وغير مثقّفين وترفض بنفس الوقت أن ينضمّ إليهم طلّاب الجامعات وحاملي الشّهادات، فمن إذاً سيؤثّر على هؤلاء الشّباب؟ وهل نتركهم بحمل السّلاح لوحدهم ثمّ نحمّلهم المسؤولية؟ وتقول بأنّ هذا الجواب قد أسكتها. كثيرةٌ هي الجدليّات المتعلّقة بحمل الشّباب للسّلاح لمواجهة آلة النّظام العسكريّة، كثيرةٌ هي الأسئلة الّتي لا يمكن الإجابة عليها والّتي تخترق كثيراً من المبادئ الّتي يحملها الأشخاص في أوقات السّلم. **لقد أعاد ما ذكرته النّساء من حواراتٍ ونقاشاتٍ وأسئلةٍ ذاتيّةٍ عن الموقف من حمل السّلاح في بدايات الثّورة، أعاد الذّاكرة إلى تلك الأيّام، وإلى الأسئلة الجدليّة الّتي يَصعُب شرحها أو تبريرها.** الّتي أصبحت تُختصر الآن بجملة «أنا ضد السّلاح» أو جملة «أنا مع حمل السّلاح»، مع تجاهل تفاصيلٍ مهمّةٍ عاشها الكثيرون والكثيرات في تلك الفترات، ومازال يعيشها الكثيرون مثل أهلنا في إدلب. إن عسكرة الثّورة ليست قراراً مباشراً، لكنّه قرارٌ اتّخذه الرّجال ولم تتّخذه النّساء، فما كانت مواقف النّساء؟ وكيف تفاعلنَ معه ومع نتائجه؟

تشاركنا «نسيم، دمشق»، بمراجعتها الذّاتيّة لمواقفها السّابقة من السّلاح وعسكرة الثّورة، فهي ترى أنّ النّظام دفع الشّباب إلى حمل السّلاح، لكن هي تلقي اللّوم على نفسها وعلى من حولها ممّن لم يحملوا السّلاح لسكوتهم وسكوتهنّ عن الانتقاد للانتهاكات التي كانتْ تحدث من قبل شباب الثّورة وتقول

> **«كنا عم نحكي متل النظام، هوي بقول إنو الانتهاكات هي أعمال فردية ونحنا كنا نقول عن شباب الجيش الحر وغيرون بس يغلطو ويقومو بانتهاكات إنو كمان هي أعمال فردية، عم يدافعوا عن حالهن ،علما انا ما عندي مشكلة يدافع الواحد عن حالو باي طريقة كانت بس فيه شغلات ما كانت عم تصير دفاع كانت عم تصير هجوم وهيدا الشي ما وقفنا وقلنا لا فشفنا العسكرة وين وصلتنا.»**

وفي مراجعةٍ ذاتيّةٍ أخرى لـ «غيثاء، دمشق»، تقول فيها أنّ رأيها تأرجح بين ضدّ ومع عسكرة الثّورة في بدايتها. فهي ضدّ السّلاح كمبدأ عامّ، لكنّ ما كان يحدث من عنفٍ وذلٍّ وبطشٍ من جهة النّظام، جعلها تحسّ أنّ الفعل المجدي الوحيد هو حمل السّلاح حتّى أنّها فكّرت هي نفسها بحمل السّلاح، ووجدتْ أعمال الإغاثة والإعلام غير مجديةٍ مع نظامٍ يضرب بالهاون ويقصف بالطيران. وتضيف أنها بعد فترةٍ قصيرةٍ تراجعتْ عن هذا التّفكير بسبب العنف الأكبر الّذي تسبّب به حمل السّلاح ضدّ سلاح النّظام.

بينما تصف بعض النّساء موقفها الرّافض للعسكرة في البداية لإدراكهنّ بأنّ العنف سيجلب عنفاً أكبر، لكنّ هناك بعض التّفاصيل الّتي جعلتْ بعض النّساء يقتنعن بأنّ حمل السّلاح كان ضرورةً في بعض الفترات. «حور، القصير»، تقول أنّها من البداية رفضتْ العسكرة وخافتْ من نتائجها، لكن بعد دخول ميليشيات[41] إلى الضّيع المجاورة لها وقيامها بالقتل والتّنكيل بالمدنيّين والمدنيّات، اقتنعتْ أنّ حمل السّلاح للدّفاع عن الذّات ومنع مثل هذه الميليشيات من الدّخول إلى قريتها هو أمرٌ ضروريٌّ وحتميٌّ، لكنّ حمل السّلاح لا يمكن أن يقف عند فكرة الدّفاع عن النّفس، والقتل سيصبح عند الطّرفين ولو بشكلٍ غير متناظرٍ، وتقول إنّ حمل عشراتٍ من الشّباب لبعض الأسلحة أعطى النّظام حجّةً قويّةً باستخدام الطّيران والقصف الجوّيّ.
وبعض النّساء أعطتْ آراءاً ومواقفاً أكثر ثباتاً ضد العسكرة من الطّرفين منذ البداية، فاستخدام النّظام للجيش والأسلحة منذ الأيّام الأولى كان صادماً، وتسلّح شباب الثّورة في البداية وتحوّلهم إلى فصائل مدعومةٍ ومموّلةٍ كان صادماً أكثر. وأكّدن أنّ العسكرة لا تجلب إلّا الخراب والدّمار على الجميع. بل هناك كرهٌ كبيرٌ ضدّ كلّ من يحمل السّلاح لأنّ العسكرة هي من قتلتْ الحبيب والزّوج والأب والأخ والابن للكثير من النّساء.

من جهةٍ أخرى، وضّحتْ بعض النّساء أنّهنّ كنّ مؤيّداتٍ بشكلٍ كاملٍ «لشباب الجيش الحرّ» في البداية، وأنّ حملهم للسّلاح كان بشكلٍ ظاهريٍّ خياراً هم اتّخذوه لكنّه بالعمق هو فعلٌ أُجبِروا على القيام به. لكن تغيّرت مواقفهنّ بشكلٍ معاكسٍ وأصبحن ضدّ السّلاح والعسكرة مع ظهور الخطاب الإسلاميّ المتشدّد، وظهور جبهة النّصرة وغيرها من الفصائل الإسلاميّة المتشدّدة واختتامها بداعش، ودخول التّمويل السّياسيّ الّذي تَحكّم بالفصائل وآيديولوجياتها وقسّمها، حتّى أنّ بعض النّساء يرين أن الموت والدّم الّذي تسبّب بحدوثه النّظام باستخدامه للأسلحة والجيش ضد الشّعب ليس هو السّبب الحقيقيّ في عسكرة الثّورة، حيث أنّ أعداد الضّحايا كانتْ في تزايد يوماً بعد يومٍ منذ بدء المظاهرات الأولى، والشّعب كان مع ذلك مصرّاً على سلميّة ثورته على الرّغم من كلّ هذا الموت والقهر، بل يجدْن أنّ المحرّض الرّئيسيّ لعسكرة الثّورة كان التّدخلات الإقليميّة والدوليّة الّتي دعمتْ خيارات السّلاح بشكلٍ خفيٍّ أو علنيٍّ.

ومن وجهة نظرٍ مختلفةٍ، فإنّ بعض النّساء كنّ ضدّ العسكرة وصرنَ معها تماماً، بل أضفْنَ أنّ فكرة الثّورة السّلميّة مقابل نظامٍ قمعيٍّ مثل النّظام السّوريّ هي فكرةٌ رومانسيّةٌ جدّاً. والسّبب في تغيير آرائهنّ كما ذكرن، هو العنف غير المسبوق الّذي بدر من النّظام وحلفائه.

بينما وجدتْ بعض النّساء أنّه من الصّعب تكوين رأيٍ حول عسكرة الثّورة، علماً أنّهنّ مقتنعاتٍ بأنّ عسكرتها قد أخذ الأمور إلى منحىً أكثر دمويّة وزاد من حمل الحرب الثّقيل على المدنيّين والمدنيّات، وصعوبة تكوين رأيٍ حول

41 تتحدث المشاركة عن مجموعات الدفاع الوطني والأمن التابع للنظام السوري، والذين بحد قولها هم من دخلوا إلى البيوت ونكّلوا بناسها وليس عناصر الجيش السوري.

عسكرة الثّورة بالنّسبة لهنّ تأتي من استثنائيّة الحالة، فمن جهةٍ هنّ ضدّ السّلاح بشكلٍ عامّ، لكن كلّ ما كان يحدث خاصّةً من ناحية عنف النّظام قد قاد الثّورة وأبناءها إلى السّلاح. فالحكم عليهم بأنّهم ما كان يجب عليهم أو كان يجب عليهم حمل السّلاح هو حكمٌ مسروقٌ من سياقه. بعض النّساء من دمشق مثلاً لديهنّ حيرةٌ في مشاعرهنّ حتّى تجاه العساكر من جهة النّظام، فمن جهةٍ، البعض منهم برأيهنّ هم ضحايا لم يختاروا أن يكونوا في الجيش بل أُجبِروا على ذلك، ومن ناحيةٍ أخرى، يمكن أن يقتلوا هم أنفسهم مدنيّين بعد أن يتلقّوا أمراً بالقيام بذلك.

آراءٌ وتحليلاتٌ مختلفةٌ تعبّر فعلاً وتصف بشكلٍ معمّق كلّ الصّراعات الدّاخليّة والخارجيّة عن عسكرة الثّورة، وتوثّق لحظاتٍ مهمّةً من عمق السّياقات عن كيفيّة بدء وتطوّر العسكرة. لكن يبقى الأمر الأكثر وضوحاً هو أنّ قرار العسكرة في السّياقات السّورية كان قراراً من الرّجال، وهذا إلى حدٍّ ما متوقّعٌ كما في معظم الثّورات والحروب. لكنّه يشرح رسوخ الأدوار الجندريّة المفضّلة للرّجل وكذلك للمرأة في أوقات الحرب والسّلم. فالرّجل، المسؤول عن حماية الأرض والعرض، عن الوطن ونسائه، والنّساء عليهنّ تقبّل هذا الدّور والقيام بأدوارهنّ بدعم الرّجال وتحمّل آثار الحرب الّتي ستستمرّ لسنوات. بنفس الوقت، هناك الكثير من الذّكور ممّن اضطرّوا لأخذ هذا الدّور دون رغبةٍ فيه. فعدم القيام بهذا الدّور قد يتمّ وصفه بالخيانة أو الجبن من قبل مجتمعٍ صفته الغالبة هي الذّكوريّة المسيطرة، بل يُسقَط عن الذّكر الرّافض صفة الرّجولة. عدا عن مفهوم الرّجولة المقترن بالوطنيّة الّتي فحواها هو حمل الرّجل للسّلاح للدّفاع عن فكرة الحقّ والوطن.

كيف أثّرت العسكرة على النساء؟

أثّرتْ العسكرة سلبيّاً على حياة جميع النّساء، حيث حدّتْ من حركتهنّ ومساحتهنّ وفعلهنّ وأفقدتهنّ أحباءهنّ ومنعتهنّ من إكمال أهدافهنّ من عملٍ وتعليم، وقضتْ على المطالب الأساسيّة التي طالبن بها في بداية الثّورة من حريّةٍ وعدالةٍ وكرامةٍ وحياةٍ كريمةٍ، وشرّدت عوائلهنّ وشردتهنّ ودمّرت بيوتهنّ وذكرياتهنّ.

في دمشق، عبّرتِ النّساء عن بشاعة الحياة مع الوجود العسكري المكثّف في الفضاءات العامّة، على الحواجز وفي الأسواق وفي كلّ مكان، وعن العنف الذي يتعرّضن له على الحواجز العسكرية ونقاط التفتيش بدءاً من الكلام العنيف إلى التّحرّش. ومع ذلك يجدن أنّ العنف الذي يواجهنه هو عنفٌ مخفّفٌ عن ذلك الموجّه لبعض الشّباب ممن لا يستطيعون الحركة خوفاً من اعتقالهم أو سحبهم إلى الخدمة العسكريّة من قبل تلك الحواجز.

> **«هاد الظهور الكثيف للباس العسكري بيخليكي تتعودي وتحسي بنشافة الحياة كلا، احساس بشي مو مستقر، حواجز، بلوك وغرف وحدا عم يتأمر عليكي ويمارس سلطة ع اعتبار انك محجبة او لاء، لوين رايحة ، وشو عندك امتيازات.» (غيثاء)**

تقصد غيثاء بالامتيازات هنا الانتماء الطّائفي، أو علاقاتٍ أو قرابةٍ مع مسؤولين نافذين وعائلاتٍ ذات علاقاتٍ قويّةٍ مع السّلطة. أمّا بالنّسبة للحجاب فإنّ التّدقيق على المحجّبات برأيها هو أكبر منه على النّساء غير المحجّبات باعتبار أنّ الحجاب يدلّ على الانتماء الدّيني مع فرضيّة أنّهنّ على الأغلب ضدّ النّظام، خاصّةً إذا كنّ من المناطق التي ثارتْ ضدّ النّظام. وهنا نجد التّمييز على أساس الدّين والانتماء المناطقي الممارس على بعض النّساء دون سواهنّ.

«الحواجز والسلاح خلاني غير طريقي من مكان لمكان لانو أيام كتيرة العساكر يتحرشوا فيني و يلحقوني وخاصة لما فوت بحارات صغيرة و يحشرني بزاوية و صرخ عليه و اضطريت غير طريقي اكتر من مرة لما كون واقفة ناطرة الباص يصيروا يستخدموا سلاحهن ليمنعوني اعمل الشي يلي بدي ياه هيك يرفعوا سلاحهن بوجهي و خلال شغلي لما اخد ادوية لما فوت بين حواجز نظام ومعارضة وقصف وسلاح، كتير كنت خاف.» (ناديا، دمشق)

أمّا في المناطق المحاصرة، فقد أثّر الحصار العسكريّ من قبل قوّات النّظام وحلفائه والعسكرة داخل مناطق الحصار بشكلٍ مباشرٍ على حياة معظم النّساء، فقد فقدن العديد من أحبائهنّ وأصدقائهنّ وصديقاتهنّ، ومنعهنّ الحصار العسكريّ من إكمال دراستهنّ خاصّةً التّعليم الجامعي لعدم قدرتهنّ على الذّهاب إلى الجامعة الّتي هي عادةً في المدينة، أو من ممارسة أيّ نشاطٍ يوميٍّ معتادٍ يتطلّب الانتقال من وإلى المنطقة مثل العمل والتسوّق وزيارة الأهل والأصدقاء والصديقات وبعض العيادات والمستشفيات التي تؤمّن خدماتٍ طبيّةٍ معيّنةٍ... إلخ وكلّ ما يمكن أن يتمّ منعه بسبب الحصار.

إضافةً إلى ذلك تدخّلتْ الفصائل العسكريّة، وخاصّةً الإسلاميّة منها في كثيرٍ من تفاصيل العمل المدنيّ في بعض المناطق المحاصرة مثل الغوطة الشّرقيّة في ريف دمشق، وخاصّةً عندما كانتْ النّساء من يقمن بهذا العمل. تدخلت عناصر من الفصائل بمحتوى المواد التي كانتْ تقدّم في الورشات، ومنعوا بعضاً منها باعتبارها منافيةً للأخلاق العامّة مثل: الصّحة الإنجابيّة للمرأة.

وعانتْ النّساء في سياقاتٍ ومناطق أخرىً، من آثار العسكرة المباشرة، مثل الرّقة التي واجهتْ نساؤها جميع أشكال وأنواع العسكرة برّاً وجوّاً. عانين من التهميش ومنع الحركة والموت اليوميّ لذويهنّ وانعدام الأمان.

«تاثرت دراستي ماقدرت اكمل جامعتي لان دير الزور صار بيها احداث ومشاكل وقصف وحصار. مرة كنت بالامتحان بمدرستي وصار القصف وماعاد اقدر ارجع على البيت ظليت ساعتين بالمدرسة ما اقدر اطلع من القصف. بسبب داعش وسلاحهم اخي تصاوب بلغم كان مزروع ببيت عمي راح هو وابن عمي حتى يتفقد البيت وانفجر عليهم اللغم ابن عمي توفى واخي انقطعت رجله وحاليا امي تعتني بيه وتساعده مو كبير عمره تقريبا 13سنة.» (سلام)

وذكرتْ السيّدات من الرقّة، كيف حُرمتْ معظم النّساء خاصّةً في فترة سيطرة تنظيم داعش من أيّة حركةٍ أو فعلٍ أو مساهمةٍ مجتمعيّةٍ أو حتّى حركةٍ عاديّةٍ ضمن المكان، بل زُوّجت العديد من النّساء غصباً من رجال من التّنظيم، أحياناً برضى الأهل وأحياناً بالإكراه.

أمّا في مناطق القامشلي و الحسكة، فإنّ تأثير العسكرة كان على حريّة الحركة وخاصّةً الفتيات والنّساء، مما أثّر على نمط حياتهنّ العام، وحرمهنّ من حقوق كثيرةٍ كانتْ مسموحةً سابقاً. بل أنّ ظواهر كانتْ موجودةً لكن بنسبٍ قليلةٍ مثل الزّواج المبكّر للفتيات، زادتْ في تلك المناطق[42] بحسب ما قالتْه السيّدات، وقد ذكرت أكثر من سيّدةٍ ممّن قابلناهنّ أنّ السّبب الرئيسيّ هو خوف الأهالي من المستقبل ومن وضع المنطقة الأمنيّ والاقتصاديّ.

> **«المرأة والرجل تأثروا لكن المرأة اكثر مثلا من ناحية اللبس والطلعة من البيت، صار هناك خوف عند الاهل، وكتير بنات منعوها اهلها من التعليم وزادت ظاهرة الزواج المبكر على تركيا وكردستان مثلا بأعمار 15 وال 16 من الخوف والوضع الاقتصادي. الأهل يخافوا يموتو وبناتهون يتشردو خاصة خلال آخر 3 سنوات.» (سوسن)**

وظهرتْ الشّكوى من حالات الزّواج المبكّر والزّواج الإجباريّ في إدلب أيضاً، وأشارتْ إحدى السّيدات أنّ الرّجال ذو المراتب العسكريّة العليا في الفصائل قد استخدموا سلطتهم العسكريّة ووضعهم الماديّ الجيّد في إقناع وأحياناً إجبار بعض الآباء على تزويج بناتهم لهم. عدا عن حالات الزّواج المبكّر الّتي ازدادت هناك لأسبابٍ عديدةٍ منها انعدام الأمان، والأوضاع الاقتصاديّة المتدهورة لكثيرٍ من العائلات.

وقد عبّرت بعض السّيدات في الرّقة والحسكة، عن صعوبة الحياة في ظلّ السّيطرة العسكريّة. فعسكرة النّساء أيضاً برأيهنّ زادت الصّورة قساوةً. طبعاً البعض ذهبن إلى أنّ السّلاح يجب ألّا يكون في يد المرأة وأنّ ذلك يلغي من أنوثتها، وأخرياتٍ وجدن أنّ المرأة بحملها للسّلاح أصبحتْ أكثر قسوةً على باقي النّساء وليستْ داعمةً لهنّ، وأشارتْ بعض السّيدات إلى أنّ الشّابّات والشّباب يلجؤون الآن إلى الانتساب إلى القوى العسكرية في حال حدوث مشاكل مع الأهل، وبذلك يستخدمون السّلطة العسكريّة لفرض مواقعهم وآرائهم على الأهل.

ووصفتْ بعض النّساء من مختلف المناطق خاصّةً المهجّرات منهنّ خارج سوريا، اختلاف نظرتهنّ إلى العسكريّ الّذي كان من المفروض أنّه يحمي البلد وشعبها وأصبح يقتلهم بدلاً من ذلك، لقد كانتْ عندهنّ سابقاً نظرة احترامٍ إلى أفراد الجيش بعكس النّظرة إلى عناصر الأمن الذين كنّ يخفن منهم حتّى دون رؤيتهم.

أمّا الآن فهنّ يكرهن أيّ رمزٍ يدلّ على العسكرة، ورافقهنّ هذا الشّعور إلى البلدان الّتي يتواجدن فيها الآن، فرؤيتهنّ لأيّ عنصرٍ ولو من الشّرطة، يبثّ الرّعب في نفوسهنّ ويفضّلن الانسحاب من المكان وعدم التّواجد فيه.

42 لا نقصد هنا أن ظاهرة الزواج المبكر هي فقط موجودة في مناطق الحسكة والقامشلي. لكنها ذُكرت بشكل خاص من قبل النساء في تلك المناطق إضافة إلى مناطق إدلب. بينما لم تؤشر النساء إليها في المناطق الأخرى.

وهكذا، حيثما تحلّ العسكرة وتصبح هي السّلطة الحاكمة، تتّجه العلاقات الاجتماعيّة إلى درجةٍ أعلى من العنف، بل يصبح العنف هو السّمة المعمّمة والشّاملة لنمط الحياة اليوميّ. لقد أعطتنا النّساء ممّن قابلناهنّ صورةً عن بعض تأثيرات العنف على مستوياتٍ متعدّدةٍ في الحياة وعلى المرأة بشكلٍ خاصٍّ، ضمن وبين كلّ هذه الدوائر العنفيّة التي تولّد بعضها. لكن بالتّأكيد، في أبحاثٍ أخرى تركّز على سياقٍ واحدٍ وتقاطعاتٍ أقلّ، وتدرس تفلغل العسكرة والعنف في مفاصل الحياة وتأثيرها على حاضر ومستقبل المرأة. سنرى آثاراً وتحليلاتٍ أعمق تعكس ظواهر ومفرزاتٍ خفيّةٍ وظاهرةٍ لأثر العسكرة على النّساء وكلّ ما يحيط بهنّ ويشكّل حياتهنّ اليوميّة.

لكن حتّى في بحثنا هذا الّذي يهدف إلى سماع صوت وتحليل نساءٍ سوريّاتٍ من مختلف السّياقات ومختلف التجارب والإدراكات، لتكوين نظرةٍ معمّقة عن الاختلافات والتّشابهات وما بينهما على أمل تكوّن أرضيّةٍ أساسيّة ننطلق منها كنساءٍ سوريّاتٍ كنّا مغيّبات عن بعضنا البعض، وتغيّبنا أكثر في ظلّ الحرب ومفرزاتها. **أجمعتْ جميع النّساء في المقابلات على قلقهنّ من أثر العسكرة بشكلٍ خاصٍّ على الأطفال في كلّ المناطق،** أطفالٌ تجتاحها أمراضٌ نفسيّةٌ وجسديّة، بسبب الخوف وعدم الأمان، وأصوات آلات الحرب المحيطة بهم، والمناظر العنيفة الّتي رأوها ومازالوا يرونها والّتي ترسّخت في أذهانهم عن اللّغة الّتي باتوا يستخدمونها، لغةً مليئةً بالحرب والعنف، ألعابٌ عن القتل والخطف والتّعذيب خاصّةً للصّبية، رغبةً مبكرةً في حمل السّلاح كلّ هذا في غياب الدّعم الكافي للتّعليم والنّشاطات التّرفيهيّة. حياةٌ للأطفال خاليةً من أيّ شكلٍ من أشكال البهجة ومن الألوان ومن الفرح ومن الطفولة. أمّا اليافعين من الذّكور، فظهر رعبٌ مباشرٌ منهم وعليهم، فالبعض منهم في جميع المناطق على اختلاف السّلطات الحاكمة، أصبحتْ بيدهم سلطةٌ على النّاس أعطتهم إيّاها العسكرة وحمل السّلاح، في غياب أيّ أفقٍ لمستقبلهم المنتهي قبل أن يبدأ، الخالي من التعليم، والمهن، وقصص الحبّ والمراهقة، الخالي من الأحلام والأهداف، يبدو السّلاح حلّاً وحيداً لإنتاج المال والحصول على السّلطة.

ماذا تعني العدالة وماذا يعني السّلام؟

ناقشتِ النّساء ممّن قابلناهنّ مفاهيم مختلفةً للعدالة والسّلام المتوقّعين للمشهد السوريّ بناءً على تعقيداته الحاليّة واختلاف سياقاته. وبناءً على الكوارث الإنسانيّة الّتي حدثتْ ومازالتْ تحدث على مستوى الفرد والعلاقات الاجتماعيّة والأضرار الماديّة والنفسيّة، وانهيار قطّاعاتٍ كاملةٍ مثل التّعليم والصّحّة والخدمات العامّة الأخرى وانتشار العسكرة والدّمار ، بناًء على خبراتهنّ وتجاربهنّ التي عشنها كنساءٍ ومازلن يعشنها في هذه الحرب وعلى تجارب بلدانٍ أخرى.

توافقتْ أراؤهنّ حول المدّة الزّمنيّة الّتي نحتاجها لإرساء مساراتٍ مستدامةٍ للعدالة والسّلام في سوريا، والتي تتطلب في تقديرهنّ على الأقلّ 20 سنة، إن بدأنا من حاضرنا هذا. فهناك إدراكٌ كاملٌ بحجم الشّروخات الّتي حدثتْ مجتمعيّاً بين تأييدٍ ومعارضةٍ وفقدٍ واعتقالٍ وتغييرٍ ديموغرافيّ في بعض المناطق، إضافةً إلى الأحقاد والرّغبة بالانتقام والخوف من تكرار كلّ ما حدث، مع اتّساع الشّرخ بين الإثنيّات والأعراق كما ذكرن، خاصّةً بين بعض العرب وبعض الأكراد وبين الكثير من الأفراد من طوائف وديانات مختلفة، عدا عن الدّمار الكبير في البنى التحتيّة والبيوت والأبنية ومؤسّسات الدّولة، والأوضاع الاقتصاديّة الصّعبة الّتي تلقي بظلالها على جميع الأفراد وفي كل المناطق، مع غياب فرص العمل المستقرّة، وأجيالٍ من الأطفال لا تعرف إلّا الحرب ولم تحظَ حتّى بفرصة التّعليم الأساسيّ، وصبيةٍ حملتْ السّلاح وفتياتٍ تزوّجن وهنّ قاصراتٍ ونساءٍ وشبابٍ فقدن خبراتهنّ وعملهنّ.

إضافةً إلى انقسام المناطق وعدم تبعيّتها إلى إدارةٍ واحدةٍ (مناطق سيطرة النّظام، مناطق سيطرة قوى المعارضة المسلّحة، مناطق سيطرة قوّات سوريا الدّيمقراطيّة)، **هنّ لا يرين الآن سوريا واحدةً، بل مناطق سوريّةً مقسّمةً بين سلطاتٍ محلّيّةٍ تابعةٍ لتدخّلات قوى الدّول الخارجيّة مثل روسيا والولايات المتحدة وإيران وتركيا، ولتمويلاتٍ غير علنيّةٍ من دولٍ أخرى.** ثمّ النّهجير والنّزوح الّذي حدث ومازال يحدث، لأكثر من 920 ألف سوريّ وسوريّة داخل سوريا، وأكثر من 6.5 مليون خارج سوريا، حسب تقديرات هيومن رايتس ووتش[43] في تقريرها عن عام 2018، حيث زادت هذه الأرقام بالتّأكيد عام 2019، بسبب استمرار القصف من قبل النّظام السّوريّ وحلفائه على بعض المناطق مثل إدلب (والذي مازال مستمراً حتّى يومنا هذا)، والهجوم التركيّ في شهر تشرين الأول من نفس العام على المناطق في الجزء الشماليّ الشرقي من سوريا (منطقة الحسكة والقامشلي)، الّذي تزامن مع إعلان إدارة الولايات المتحدة عن انسحاب قوّاتها من تلك المناطق إضافةً إلى منطقة الرّقة ودير الزور.

اتّفقن جميعهنّ على أنّ الخطوة الأولى الّتي لا بدّ منها لأيّ عملٍ حقيقيٍّ يتعلّق بالعدالة والسّلام، هي إيقاف الحرب بالمعنى العسكريّ وانتهاء القصف والاشتباكات والحصارات، لكن اختلفتْ وتنوّعتْ وجهات النّظر والتّحليلات عن مسار العدالة والسّلام في سوريا، وآليّات تطبيقها فيما بعد هذه الخطوة.

43 لتقرير المشار إليه موجود على الرابط الالكتروني التالي https://www.hrw.org/ar/world-report/2019/country-chapters/325524

ترى بعض النساء أنّ العدالة والسّلام هما مفهومان نظريّان اخترعتهما السّياسات الغربيّة بشكلٍ خاصٍّ، لإلهاء الشّعوب المتنازعة بها ولفرض سيطرتها على هذه الشّعوب، بل وذهبن أبعد من ذلك، فمفاهيم العدالة والسّلام وحقوق الإنسان المطروحة والمتداولة دوليّاً، بعد كل ما حدث في سوريا، تبعث على الضّحك بحسب وصفهنّ، فقد أطلقن عليها مصطلحاتٍ مختلفةٍ مثل «فضفاضة ورنّانة ورومانسيّة ومتخيّلة». وقالتْ بعضهنّ أنّ العدالة بمعناها الحقيقيّ، لن تكون إلّا «ربّانيّة وإلهيّة وسماويّة»، فيما اقترحتْ بعضهنّ أن لا ننفرّ بهذه المصطلحات وأن لا ننتظر تطبيقها من الجهات الخارجيّة، بل أن نبدأ بتحقيق «انتصاراتٍ صغيرة» تتمثّل بمبادراتٍ محليّةٍ لتخفيف التّوتر والحقد والعنف في المجتمعات الصغيرة مثل الأسرة والحي والمنطقة، وتشكيل مجموعات حوارٍ نسائيّةٍ، شبابيّة، وإيجاد نشاطاتٍ موجّهةٍ للأطفال حول التّعايش والسّلام، ومعالجة الآثار النّفسيّة للحرب، جنباً إلى جنبٍ مع انتظار قراراتٍ دوليّةٍ تتعلّق بالحلول المتوقّعة للمناطق في سوريا ولمسار العدالة.

بينما تجد بعض النّساء أنّ العدالة والسّلام يبدآن مع نزع السّلاح من جميع الأطراف المتنازعة والسّلطات الموجودة حالياً. وإقالة وحلّ كلّ هيئات ومؤسّسات النّظام السّوريّ الحاليّ، مثل الأمن والجيش، وعدم الاكتفاء بإقالة رأس النّظام فقط، والبدء بمرحلةٍ انتقاليّةٍ سياسيّةٍ تكون بديلةً لهذا النّظام ولجميع السّلطات الموجودة حاليّاً.

وبالمقابل، ترى بعض النّساء أنّ التّفكير بإيجاد نظام حكمٍ شاملٍ لكلّ مناطق سوريا بعد انتهاء الحرب العسكريّة، هو أمرٌ غير واردٍ وغير واقعيّ حاليّاً، فالمناطق قد تقسّمتْ، ومن الأفضل في المراحل الأولى وبعد توقّف الحرب، إبقاء السّلطات في تلك المناطق منفصلةً عن بعضها البعض، ودعم وجود إداراتٍ ذاتيّةٍ لتلك المناطق، وتنمية أهلها اقتصاديّاً، والعمل على التّخلّص من آثار الحرب وإحلال نوعٍ من الطّمأنينة والأمان والسّلم الأهليّ فيها، مع معالجة موضوع عودة النّازحين/النّازحات واللّاجئين/اللّاجئات (ممّن يريدون/يردن العودة إلى مناطقهم/مناطقهنّ)، إلى كلّ منطقة، وتأمين المنازل والخدمات لأهالي المنطقة الواحدة، بالتّوازي مع البدء بإجراء مفاوضاتٍ بين الإدارات المستقلّة للمناطق ضمن سوريا بحيث تهدف إلى خلق إدارةٍ شاملةٍ لتلك المناطق على المدى الاستراتيجيّ.

وعلى الرّغم من تنوّع واختلافات آليّات البدء بتطبيق خطواتٍ عمليّةٍ نحو العدالة والسّلام، نجد أنّه هناك توافقٌ على وجود مسارين متوازيين، مسارٍ محلّيٍّ سوريّ ومسارٍ دوليّ، فالتّواجد الدّوليّ في سوريا وتدخلاته العسكريّة والسوريّة أصبحتْ حقيقةً يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

من جهةٍ أخرى، ناقشتْ واقترحتْ بعض السّيّدات فكرة العدالة الانتقاليّة التي يجدن أنّ العمل على تنفيذ بعض أفكارها الّتي تمّ تجريبها في بلدانٍ أخرى، قد يفيد في الحالة السّوريّة[44]. ركّزن على المحاسبة أوّلًا، الّتي يجب أن تتمّ لمن اتّخذوا قراراتٍ أدّتْ إلى جرائم حربٍ، ورأين أنّ محاسبة كلّ من تورّط في الحرب من عساكر في الجيش، أو من حملوا السّلاح في فصائل المعارضة هو ضربٌ من الخيال، لكن يجب أن تحصل محاسبةً وأن تكون علنيّةً وشفّافةً بحيث يتابعها ويراقبها الجميع، وتنوّعت الاقتراحات بين هيئاتٍ قضائيّةٍ وطنيّةٍ تكون مسؤولةً عن هذه المحاكمات وبين جهاتٍ دوليّةٍ تراقب سير جمع الأدلّة والمحاكمات، وبين جهاتٍ مختلطةٍ بين وطنيّةٍ ودوليّةٍ.

44 ننصح بمراجعة كتاب: العدالة الانتقالية في سوريا لمؤسسة "دولتي" ومؤسسة "لا سلام دون عدالة". يمكن إيجاد المحتوى إلكترونيا على الموقع التالي www.dawlaty.org

وأودّ هنا ذكر إحدى تلك السّيناريوهات الّتي اقترحته إحدى السّيدات بشكلٍ تفصيليّ:

> **«لازم يصير في هيئة قضائية تشرف ع محاكم نزيهة، تخضع لمعايير قانون دولي، وعليها مراقبة دولية ويصير متل راوندا، و اي قاتل بيواجه الضحايا وبيطلب السماح أو بينسجن، انا ضد عقوبة الاعدام. تغيير راس النظام ما بيغير شي، المليشيات تنحل، من الدفاع الوطني للمعارضة، و يصيرو تحت لواء جيش وطني، الامن ما يكون اله علاقه بشي حياتي ،المخابرات للحماية من الاخطار الخارجية، والشرطة للأمور الداخلية. يصير في هيئة انتقالية، تعمل دستور مؤقت، يصوت عليه الشعب، ممكن حتى يكون في قوات دولية لفترة محددة، في ناس عم يقولو انو الوضع بأماكن تواجد الشرطة العسكرية الروسية أحسن من غير مناطق، علما باني كمناهضة للعولمة عندي كتير من اشارات الاستفهام المتعلقة بالامم المتحدة، ومجلس الامن. يكون في قانون يمنع هيئة الحكم الانتقالي من استلام اي منصب بعد انتهاء مهمتهم على الأقل ل 10 سنين، يكونو جايين لينقذو البلد وبس.» (ربيعة، دمشق)**

بينما ركّزت بعض الآراء على فكرة المسامحة والاعترافات بارتكاب الانتهاكات وعلى جبر الضّرر لأفراد الشعب السّوريّ. حيث يجدن أنّ البدء بهذه المحاور في أوّل فترةٍ سيساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في تهدئة النّفوس والابتعاد إلى حدٍّ ما عن الانتقام الفرديّ أو الجماعيّ، وستشكّل أرضيّةً لإجراء محاسباتٍ عادلةٍ والّتي برأيهنّ ستحتاج إلى فترةٍ طويلةٍ. بينما جبر الضّرر سيساعد في تشكيل مساحةٍ ولو مؤقّتةٍ للعودة والاستقرار المكانيّ والتّمكين الاقتصاديّ.

وضّحت بعض السّيدات من جهةٍ أخرىٰ، أنّ العدالة والسّلام يجب أن يبدآ من الفرد والأسرة، وقد ركّزن على عدالة الحقوق والواجبات بين الذّكور والإناث ضمن العائلة الواحدة (العدالة الجندريّة). وعلى وجود مبادراتٍ تساعد على تخفيف العنف الكامن في العلاقات الأسريّة وضمن المنطقة الواحدة والتي تضخّمتْ وترسّختْ في ظلّ الحرب. إضافةً إلى تعديل الكثير من المواد في القوانين المحليّة والدّستور التي تميّز الكثير من الحقوق والواجبات بين الذكر والأنثى لصالح الذّكر، وذلك لإيجاد بيئةٍ قانونيّةٍ داعمةٍ لتحقيق هذه العدالة.

وتطرّقتْ بعض النّساء إلى أهميّة فصل الدّين عن الدّولة، والّذي من شأنه المساهمة في إيجاد قانونٍ شاملٍ يحكم الجميع بغضّ النّظر عن ديانات وطوائف الأفراد، وأنّ هذا لا يمكن أن يحدث إلّا من خلال إيجاد فرص عملٍ، والقضاء على الفساد والمحسوبيّة وأخذ الكفاءات بعين الاعتبار بدلاً من الانتماءات السياسيّة أو الدينيّة أو المناطقيّة أو الولاءات لجهاتٍ معيّنة. وللقيام بذلك يجب إيجاد قوانين محليّةٍ صارمةٍ تعاقب على أيّ شكلٍ من أشكال الفساد.

العدالة أوّلاً أم السّلام أوّلاً أم ماذا؟

تنوّعت آراء وطروحات النساء ممّن قابلناهنّ حول أي المسارين يجب أن يبدأ أوّلاً مسار السّلام أم العدالة؟. انقسمتْ الآراء إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى، ترى أنّ السّلام يجب أن يحلّ أوّلاً، ثمّ تأتي بعده العدالة وذلك لعدم وجود عدالةٍ بالمعنى المطلق لا قبل الحروب ولا بعدها. وقصدن بالسّلام إيقاف الحرب من قصفٍ واشتباكات، وخروج الدّول من المشهد السّوريّ وسحب السّلاح من جميع الأطراف المتنازعة. ثمّ الالتفات إلى تخفيف آثار الحرب النّفسيّة وإزالة الدّمار وإعادة فعاليّة قطّاعي التّعليم والصّحّة مع وجود حلولٍ للبطالة والفقر، بعدها يمكن البدء بالعدالة الّتي بالنّسبة لهنّ -وكما ذكرنا سابقاً- تتضمّن المحاسبة والمسامحة والاعترافات والانتقال السّياسيّ. لكنّهنّ أكّدن على أنّ السّلام هو من يجب أن يحلّ أوّلاً لتأمين أرضيّةٍ فعالةٍ لأيّة إجراءاتٍ لاحقةٍ في مسار العدالة.

بينما تجد الفئة الثّانية، أنّ العدالة هي من يجب أن تحلّ أوّلاً ثمّ يبدأ السّلام والسّلم الأهليّ بأخذ أشكاله رويداً رويداً. وأهمّ ما ذكرنه عن العدالة: الإفراج عن المعتقلين والمعتقلات، وإيضاح مصير المختفين والمختفيات قدر الإمكان. ومحاسبة أصحاب القرار من جميع الأطراف. فبرأيهنّ أنّ كلّ أفراد الشّعب السّوريّ بحاجةٍ للاطمئنان أنّ ما حدث في سوريا لن يحدث مرّةً أخرى، وأنّ العدالة الّتي غابتْ طوال سنواتٍ عديدةٍ ستتحقّق ولو على أقلّ مستوىً، وكما قالتْ إحدى السّيدات، «فإن الشهداء لن يعودوا، والمعتقلين والمعتقلات لن ينسوا ألمهم ومعاناتهم، لكن إحلال بعض أنواع العدالة من شأنه أن يخفف من الآثار النفسية والمجتمعية على فئة كبيرة من الشعب السوري»

أمّا الفئة الثّالثة من النّساء، فترى أنّ الفصل بين مفهوميّ العدالة والسّلام هو فصلٌ في المستوى النظريّ وليس على أرض الواقع. فمن يقرّر أو تقرّر ما هي العدالة وما هو السلام؟ في نظرهنّ فإنّ هذين المفهومين متلازمان ويكمّلان بعضهما البعض، وأنّ الهدف الأكبر هو إحلال الأمن والأمان والتّأكيد على أنّ ما حدث لن يحدث مرةً أخرى. وإيجاد حلولٍ حقيقيّةٍ للتّمكين والاستقرار الاقتصاديّ بعيداً عن كلّ أشكال الفساد. بل قالتْ بعض السّيدات أنّ ما نحتاجه جميعنا، هو دولةٌ تحمينا وقانونٌ يساوي بيننا وأنّ الشّعب ليس من مسؤوليّته أن يقوم بإرساء العدالة والسّلام بل يجب إيجاد جهاتٍ وهيئاتٍ وقياداتٍ ممثّلةٍ عن الشّعب وتقوم هي بالعمل على إيجاد العدالة والسّلام مع مراقبة الشّعب لهذه العمليّة عن طريق هيئاتٍ وجهاتٍ مدنيّةٍ.

ما الذي يعيق بدء العدالة والسّلام في سوريا؟

ذكرتْ النّساء ممّن قابلناهنّ العديد من المعوّقات التي تمنع البدء الفعليّ للسّلام أو العدالة في سوريا، وأنّ هناك ملفّاتٍ ضخمةً مفتوحةً ولا تنتهي مع وقْفِ الحرب بشكلها العسكريّ، وهذه المعوّقات هي ما تجعلهنّ غير متفائلاتٍ إلى حدٍّ ما ببدء أيّ شيءٍ يتعلّق بالحلول الفعليّة الهادفة إلى السّلام في المشهد السوريّ. وفيما يلي أهمّ المحاور التي طرحتها السيّدات:

انتقال القضيّة السوريّة منذ سنواتٍ عديدةٍ من المستوى المحلّيّ إلى المستوى الدّوليّ. فهناك إدراكٌ ويقينٌ كاملٌ من قبل جميع النّساء، أنّ الحلّ للمعضلة السّوريّة الآن وبشكلٍ واضحٍ، يتوقّف على الطّريقة الّتي ستقوم الدّول الّتي ساهمت في تغذية هذه الحرب واستدامتها، من تدخّلاتٍ عسكريّةٍ وسياسيّةٍ بالمحاصصة. وأنّ هذه الحرب لن تتوقّف إلّا بعد اتّفاقياتٍ خفيّةٍ أو علنيّةٍ حتّى، بين الولايات المتّحدة وروسيا بالدّرجة الأولى، وإيران وتركيا بالدّرجة الثّانية، حول مناطق النّفوذ والسّيطرة والموارد في سوريا.

شكليّة المسارات التفاوضيّة والسّياسات الدّوليّة الّتي تمّ تشكيلها منذ سنواتٍ على أساس الوصول إلى حلٍّ يتعلّق بالوضع السوريّ، وقد ذكرن منها مسارات المفاوضة في جنيف مثلاً، يجدن أنّها مساراتٍ فاشلةٍ وغير منتهيةٍ وغير مرنةٍ تُعاني من صلابةٍ لا تتوافق مع السّياقات المختلفة للحروب، وأنّها لم تصل إلى نقطة نهايةٍ في أيّ شيءٍ يخصّ سوريا؛ كإيجاد حلٍّ سياسيٍّ وإيقاف القصف أو إعلان مناطقٍ منزوعة السلاح، أو إيجاد حلٍّ لملفّ الاعتقال والاختفاء القسريّ، أو التّهجير القسريّ ضمن سوريا. وتحدّثن عن عدم فعاليّة جميع القوانين الدّوليّة، فيما يخصّ حالات النّزاع، أو أدواتها مثل محكمة الجنايات الدوليّة فيما يخصّ مسارات العدالة، أو حتّى مجلس الأمن الّذي كانتْ تُواجه معظم قراراته الّتي كانتْ من الممكن أن تدفع باتجاه تخفيف نتائج الحرب، كانتْ تُواجَه باستخدام صلاحيّة حقّ الفيتو من روسيا والصّين.

لفتت بعض النّساء إلى إشكاليّة مفهوم العدالة في الوضع السوريّ، ووصفنَ أنّنا نتحدّث عن العدالة دائماً من وجهة نظرٍ واحدةٍ وكأنّنا: منظور من هم ضدّ النّظام السوريّ، فماذا عن العدالة من منظور باقي الأطراف؟ فعلى سبيل المثال لا الحصر، العدالة من وجهة نظر أهالي العساكر في جيش النّظام السّوريّ ممّن فقدوا/فقدن أبناءهم/أبناءهنّ وأصيب آخرون منهم، تختلف عن العدالة الّتي يطلبها من هم/هنّ ضدّ النظام وخسروا/خسرن ما خسروا/خسرن من بيوتٍ وأراضٍ وحياةٍ وأبناءٍ وبناتٍ ومستقبل. بل إنّ أحجام الخسارات والأضرار ضمن كلّ طرفٍ وحتّى في الأطراف الوسطيّة مختلفةٌ عن بعضها البعض. وأشارتْ فقط واحدةٌ من النّساء «نسيم، 28 سنة، أوروبا» أنها تخاف من عدالة المنتصر: "اذا بدي احكي عن سوريا فموضوع العدالة قد يكون غير قابل للتطبيق، لان بس انتصر حدا رح تتطبق العدالة بوجهة نظرو، رح يقود العدالة، وهاد الشي أبعد ما يكون عن العدالة». وبالفعل إذا استمرّ الحال على ما هو عليه في يومنا هذا، فإنّ الحلّ القادم هو عسكريٌّ بامتياز، والعدالة الّتي ستطبّق قد تكون من وجهة نظر هذا المنتصر عسكرياً.

التّغيير الديموغرافي الّذي حصل في مناطق عديدةٍ ضمن سوريا بسبب التّهجير القسريّ الّذي فرضه النّظام السوريّ وحلفاؤه على العديد من سكّان المناطق (درعا، إدلب، بعض مناطق ريف دمشق، حلب)، في السّنوات الماضية وحاليّاً وتواجد السّلطات المسلّحة الأخرى على الأراضي السوريّة. إضافةً إلى نزوح العديد من السّكّان من مناطقهم/مناطقهنّ إلى داخل وخارج سوريا ولجوئهم/لجوئهنّ إلى دولٍ كثيرةٍ، وتدمّر بيوتهم/بيوتهنّ، أو أخذها والعيش بها من قبل سكّانٍ أخرين، وتجميد أملاك العديد من السوريين/السوريات ممّن هم ضدّ النّظام السّوري بشكلٍ علنيّ، وإقرار قوانين من قبل النّظام السوريّ من شأنها تصعيب إثبات حقّ الملكيّة لمن غادروا هذه الملكيّات مثل القانون رقم 10، الذي أُصدِر عام 2018، والّذي يقضي بإنشاء مناطق تنظيميّةٍ في جميع أنحاء سوريا، مخصّصةٍ لإعادة الإعمار[45]. كلّ هذا من شأنه أن يصعّب إرساء أيّ قواعد للعدالة أو السّلام داخل المجتمع السّوريّ في الوضع الرّاهن.

ملفّ عودة النازحين/النازحات واللاجئين/اللاجئات إلى سوريا، والّذي سنتحدّث عنه بشكلٍ مفصّلٍ أكثر في الفقرة القادمة. والتّعريفات المتعلّقة بمعنى العودة الآمنة والطّوعيّة إلى سوريا. أكّدت الكثير من النّساء أنّ الجهات الدّوليّة وخاصّةً السّياسيّة منها، على إدراكٍ واطلاعٍ كاملٍ بأنّ عودة معظم من تهجّر من سوريا معلّقةً بجزءٍ كبيرٍ منها على بقاء النّظام السوريّ الحاليّ وأجهزته وقوانينه، خاصّةً تلك المتعلّقة بالخدمة العسكرية والاعتقال بناءً على التّوجه السّياسيّ المعادي له. لكنّ عدم حلّ هذا النّظام بجهودٍ دوليّةٍ سياسيّةٍ ينبع ويصبّ في الأجندات السّياسيّة للدّول المستفيدة من الوضع الحاليّ.

.....

45 للإطلاع على تفاصيل القانون وإجراءاته يمكن تصفح الرابط الإلكتروني الخاص في منظمة "هيومن رايتس ووتش" https://www.hrw.org/ar/news/2018/05/29/318466

عودة المهجّرات والمهجّرين إلى سوريا

سألنا النّساء ممّن يعشن داخل سوريا، وممّن اضطررن إلى الخروج من سوريا عن تصوّراتهنّ عن الشّروط والظّروف الّتي يجب أن تكون متوفّرةً حتّى يعود من يريد أو تريد العودة إلى سوريا، كذلك حول الوقت الذي يمكن أن يعود/تعود من تهجّر/تهجّرت إلى سوريا وعن المعوّقات لهذه العودة.

وبما أنّ النّساء اللّواتي قابلناهنّ يعشن في سياقاتٍ مختلفةٍ داخل وخارج سوريا، فإنّ الإجابات جاءتْ مختلفةً ومتنوّعةً على اختلاف أماكنهنّ وتجاربهنّ وتحليلاتهنّ وآمالهنّ. لذلك سنقسم ما تمّ طرحه واقتراحه حول العودة إلى سوريا بين من يعشن في الداخل والخارج.

وننوّه هنا، أنّ ملفّ العودة إلى سوريا، من وجهة نظرنا، هو من أكثر الملفّات الشّائكة. خاصّةً أنّ الظّروف الأمنيّة والمعيشيّة والسّياسيّة داخل سوريا، تقف عائقاً أمام الكثيرين والكثيرات ممّن يريدون العودة إليها. إضافةً إلى حالات التّرحيل الإجباريّة وغير القانونية التي حدثتْ في تركيا في العام الماضي 2019 لسوريّين وسوريّات إلى إدلب، والتي لم تراعي أيّاً من شروط العودة الطّوعيّة أو الآمنة[46]. إضافةً إلى حالات التّرحيل الّتي حدثتْ ومازالتْ لسوريّين وسوريّاتٍ نزحوا إلى أراضي لبنان، والبروباغاندا الّتي تثيرها بعض الجهات الرّسميّة في لبنان وتساعدها الجهات الرّسميّة التّابعة للنّظام السّوريّ حول وجود مناطق آمنةٍ في سوريا، وإمكانيّة العديد من العائلات السوريّة العودة إليها. طبعاً، معظم حالات التّرحيل كانتْ مفروضةً وبعيدةً كلّ البعد عن أن تكون آمنةً أو طوعيّةً أو قانونيّة[47].

عدا عن التّغييرات في قرارات بعض الدول الأوروبيّة، وبعض الخطابات المتداولة حاليّاً في الإعلام فيما يخصّ اللاجئين/اللاجئات السوريّين/السوريات، حيث أيضاً يتمّ تداول مصطلح «المناطق الآمنة» في سوريا خاصّةً من قبل الأحزاب اليمينيّة الأوروبيّة.

ماذا قالتِ النّساء اللّواتي يعشن في سوريا عن العودة؟

كانتْ معظم آراء النّساء اللّواتي يعشن في إدلب ودمشق والرّقة والحسكة، هي أنّ النّسبة الأكبر ممّن هاجروا وهاجرن خارج سوريا، وخاصّةً إلى الدول الأوروبية، لن يعودوا في الوقت الحاليّ، وكذلك الأمر في السّنوات العشر القادمة. وقد بنين هذه التّوقّعات على الواقع المعاش وتفاصيله والوضع العام الذي تمرّ به جميع المناطق في سوريا. فإنّ وضع الدّمار والفقر وصعوبة الحصول على فرص العمل في الرّقة مثلاً، برأي جميع النّساء اللّواتي قابلناهنّ فيها، يمنع العديد من العودة. وأنّ الكثيرين والكثيرات ممّن لجأوا/لجأن إلى أوروبا منذ عدّة سنواتٍ، قد بدأوا برسم حياةٍ مستقرّةٍ هناك.

46 ننصح بمراجعة تقرير منظمة العفو الدولية حول هذا الموضوع. التقرير مكتوب باللغتين الإنكليزية والتركية. وفيما يلي الرابط الالكتروني للتقرير باللغة الإنكليزية. https://www.amnesty.org/download/Documents/EUR4411022019ENGLISH.pdf

47 ننصح بمراجعة تقرير منظمة سوا للتنمية والإغاثة بعنوان "ماهية العودة شروط وهواجس اللاجئين السوريين" الصادر في شباط من عام 2019.

فمثلاً الشّباب والشّابّات الذين/اللواتي يدرسون/يدرسن في الجامعات هناك، والعائلات التي أنجبتْ أو وضعتْ أطفالها في المدارس، ومن وجد أو وجدت فرصة عملٍ، كلّ هؤلاء لن يفكروا بالعودة قريباً. ولا تنصحهنّ النساء بالعودة أصلاً.

«ما حدا بيرجع طول ماهاد الوضع موجود، ماحدا رح يرجع. والمشكلة كل ما طالت الازمة كل ما زاد تشبثوا ببلدان برا، يعني دايما بنقول لو كان الحل خلال سنة او سنتين صدقيني اغلب العالم رح ترجع بس طالت 8 سنين 9 سنين، الإنسان نظم حياتو هونيك، تعلم نظام الحياة هوني، حس بحالو كإنسان.» (شيلان، الحسكة)

وأضفن أسباباً أخرىً تمنع الكثير من الشّباب والشّابّات من التّفكير بالعودة، حتّى لو كانت هذه رغبتهم/رغبتهنّ. أسباباً تتعلّق بوضع المنطقة غير المستقرّ أمنيّاً، فهناك تخوّفاتٌ كبيرةٌ من تغيّر السّياسات في المنطقة (وهذا ما حدث خلال البحث من انسحابٍ للقوّات الأمريكيّة بشكلٍ جزئيٍّ والهجوم التّركيّ في تشرين الأول 2019)، إضافةً إلى قوانين تفرضها قوّات سوريا الدّيمقراطيّة تتعلّق بالتّجنيد الإجباريّ للشّباب في مناطق سيطرتها.

«عندي اخوتي خارج سوريا موجودين بتركيا ما انصحهم يرجعون على الوضع الحالي. مايرجعون لان مافي فرص عمل وهم معيلين لاسر وشغلة ثانية التجنيد اللي فارضينه على الشباب قوات قسد.» (لارين، الرقة)

وأضافتْ بعض السيّدات بأنّ الشّروط المتوفّرة في الدّول الأوروبيّة من حريّةٍ وديمقراطيّةٍ واستقرارٍ، ستجعل العودة إلى سوريا بوضعها الحاليّ صعباً على الكثيرين والكثيرات، وأنّ العودة في المستقبل غير القريب قد تكون على شكل زياراتٍ أو «للسّياحة» أو إنشاء مشاريعٍ في البلد. أمّا الاستقرار النهائيّ فسيكون صعباً، خاصّةً على الفئة الشّابّة، مع ذكرهنّ أنّ معظم من يتواصلن معهم/معهنّ من ذويهم/ذويهنّ في الخارج يتمنّون/يتمنّين العودة والاستقرار في البلد، إنما تبقى هذه المشاعر ضمن دائرة التمني والحنين ولا تقترب من الواقع بشيء.

أمّا في إدلب، فقد عبّرتْ معظم السّيّدات عن عدم احتمالية عودة السّوريّين والسّوريّات إلى إدلب في وضعها الحاليّ، بل نصحنهنّ بعدم العودة بسبب سوء الأوضاع الأمنيّة من قصفٍ وانعدام الأمان، وعدم استقرار المشهد السّياسيّ في المنطقة.

«اكيد ماني متفائلة بعودة المهجرين على سورية، خصوصا بهالفترة والوضع الحالي اكيد لا ما يرجعو. أصلا نحنا ما عاد ما عم نحس انو النا ارض نستقر عليا. وين بدن يجو يعني ما في تفاؤل و يلي طلع لبرا شاف الامن والاستقرار وكل شي موفر..وين بدهون يرجعوا..علما إنو نحنا منتمنى يرجع يلتم الشمل.» (كندة، إدلب)

من ناحيةٍ أخرى، كانتْ بعض النّساء متفائلاتٍ بأنّ معظم من غادروا سيعودوا، وذلك لأنّه لم يخرج أحدٌ بإرادته من سوريا. وأنّ الوطن يعني الكثير للسّوريّين والسّوريّات، لكن على الحرب أن تنتهي، وعلى الحلّ السّياسيّ أن يبدأ حتّى يفكّر أحدٌ بالعودة إلى سوريا.

ماذا قالتِ النّساء اللّواتي يعشن خارج سوريا عن العودة؟

تحدّثَتْ النّساء ممّن قابلناهنّ في لبنان عن العودة من عدّة زوايا. وفعلاً طرحتْ كلّ سيدةٍ رأياً يحمل الكثير من القضايا والتّفاصيل، لذلك سنضعها كما قالوها بكلماتهنّ وأسلوبهنّ، وسوف نشير إلى أهمّ النّقاط المطروقة حول العودة. العودة الآن ليستْ خياراً مطروحاً، عدم العودة الآن هي موقفٌ سياسيّ، ويجب أن تتحقّق العدالة قبل العودة.

«العودة بالنسبة الي حاليا ابدا مو خيار. يعني احيانا بشوف ناس بتقول يلي ماعليه شي خلص يرجع. انا بشوفو اعادة تطبيع مع النظام. يعني شو نرجع انو خلص نحنا نسينا كل شي صار والناس يلي ماتت ونرجع نبني بيت فوق الركام وخلص؟ وانا شايفة انو كل التدييق يلي عم يصير هلق على اللاجئين هو من تحريك النظام حتى يرجع يقوى ويقول خلصت الحرب ورجعت الناس وفاز على الارهاب اذا بقينا برا فأقل الشي نضل محسسين المجتمعات المضيفة انو بسوريا في غلط ولازم يتصلح وانو في نظام لازم يروح. وانا ماعندي نية ارجع ابدا ومن فترة كان في نقاش انو اذا رجعونا بالقوة بترجعي وبتسوي امورك وانا قلت لاء. ولا ممكن فكر بهيك شي انا دايما بقول صار في بيني وبين النظام دم ومو بسهولة بينتسى. مو دم ناس انا فقدتن بس لاء الاف الشهداء يلي انا متذكرة قصصن والاف المعتقلين.» (نور، لبنان)

العودة حقٌّ لنا، لكن يجب أن تكون عودةً آمنةً وطوعيّةً وللجميع

«حقنا نرجع، بس بدها كتير ضوابط ،يعني العودة مقيدة بالوضع الأمني والسياسي والاقتصادي، اهم الشي الوضع الامني ،ما يكون في تجنيد اجباري، ما يكون في انتهاكات مستمرة، مايكون المنتهك اساسا موجود، غير هيك صعب تتحقق النا العودة الآمنة. انا اطلعت شوي ع ملف العودة واغلب الناس يلي عم ترجع هلق هي نساء، اطفال، شيوخ .فما بتخيل انو في عودة حقيقة، العودة الحقيقية هي عودة الشباب السوري يلي بدن يعمرو سوريا . وهي العودة مابتخيل تتحقق بهي الظروف. تخلص الحرب اول بعدين بتنتفح ملفات العودة، تتحقق العودة الآمنة اقل الشي.» (أماني، لبنان)

إن عدتُ الآن سأموت، ويتدمّر مستقبل أولادي

«العودة حالياً ما بفكر أبداً فيها، انا اهلي كانوا يقلولي ارجعي على سوريا كنت قلن يا انا يا النظام الحاكم. وماعندي رغبة طول ماهو موجود ،صعب انو انتي تنتفضي على الظلم وترجعي ترضخيلو. يعني انا بعرف حالي اذا رجعت رح موت لان مارح اسكت واذابدي احكي مو مسموح إلي احكي يعني انا ميته ميته انا اذا رجعت بحس حالي من عداد الموتى. وفوق هاد كلو بقضي على مستقبل ولادي، شايفه الشباب اللي عم يرجعوا شو عمن يصير فيهون.» (محّار، لبنان)

أين أبقى؟ وإلى أين أعود؟

«ماحدا عم يرجع بإرادتو، صدقيني لو القصة بأيدي العالم ماحدا بيرجع. كلنا حلمنا نرجع، بس مو نرجع على الوضع هاد. انا ابدا مو مع العودة، عم شوف الناس يلي عم ترجع كيف غاصة، بس حياة السورين هون بلبنان صارت صعبة بسبب المدايقات يلي عم تصير. انا ياريت ارجع بس كيف بدي ارجع بدون ابني؟ وانا ما بأمن ارجع ابدا مع ابني، واذا رجعت لمين ولوين بدي ارجع على الشارع؟ وانا بيتي اصلا مابيتصلح وانا مافي مين يصلحلي إيا. انا ما بتصور ارجع حتى لو كان مأمنلي بيت.ارجع وشوف الي قتلو ابني الأول.ما بدي ابني التاني يفوت على الجامعة او يروح على دائرة حكومية ويلاقي صورة بشار وحافظ. انا مابقدر ابدا ولا بخلي ابني بالجامعة يقول مجبورا «بالروح بالدم» هذا ذل بكل معنى الكلمة انا هون مابشوف عيشتنا ذل انا عايشة هون بكرامتي.» (ورد، لبنان)

كذلك الأمر بالنّسبة للنّساء ممّن يعشن الآن في تركيا، فقد طرحن وجهات نظرٍ متعدّدةٍ عن العودة امتزجت بين مطالبٍ على الصّعيد السّياسيّ والاجتماعيّ، وقراءتهنّ الواقع الذي سيعدن عليه وتأثيراته عليهنّ وموضعهنّ فيه.

تغيير سياسي واجتماعي.. عندها أعود

«لما بينتهي حكم الديكتاتور وحكم العسكر وحكم الطائفية بسوريا لما بيطلعوا المعتقلين، الشهداء مالح يرجعوا،لما الطفل بياخد حقه بالعملية التعليمية، السيدة بتاخد حقها كانسانة، الاهم لما مفهوم الجهل يبطل موجود انه نحنا وصلنا لمرحلة حاج جهل. في لسا جهل كبير وعم يتمدد بسوريا، بالغوطة طفلة عمرها 12 سنة مزوجينها وامها فرحانة وباعتة صورتها وتعالوا باركولي بنتي صارت إمرأة. لما بتخلص البطالة ولما بتتوفر فرص عمل للشباب. بتمنى ارجع مو ليتحقق النص انا بطلب الكل. لما قمنا بالثورة ماطلعنا وما تهجرنا وما فقدنا احبابنا كرمال نرضى بالنص.» (رند، تركيا)

بعد زوال النّظام السّوريّ وفصائل المعارضة

«بالنسبة الي ولاممكن فكر بالعودة الى سوريا اذا كان موجود اي شي بيتبع للنظام او اعوانه واي شي كمان بيتبع للمعارضة الحالية واعوانها.اي حدا قاد فصيل مسلح بسوريا انا ما ممكن ارجع اذا هو استلم قيادة. لا اعترفت على هدول ولاني معترفة على هدول. لانه متل ما اساؤوا هدول اساؤوا هدول للصراحة.» (نسرين، تركيا)

ليس لي مكانٌ حاليّاً في سوريا

«مستحيل انا شايفة واقع مستحيل. لا خرج اقعد بمناطق الجيش الحر ولاخرج اتحمل جبهة نصرة او حدا يقللي البسي او حدا يقللي اعملي ولا حدا يقلي انت هيك عاملة او هيك حاكية. مناطق النظام ماعاد اتحمل، وقت رحت على لبنان حسيت بضيق نفس فظيع اتذكرت النظام بس شفت عساكر .ماعاد فيي ومافيني اساسا ولاشوف حدا لابس عسكري. ولافيني روح على مناطق قسد ممكن يعتقلوني.» (هيفين، تركيا)

أما بالنّسبة للنّساء اللّواتي يعشن الآن في بعض الدّول الأوروبيّة، فقد كوّنّ وجهات نظرٍ تعتمد على الظّروف الحاليّة، وحتّى السّابقة، في سوريا في المجتمع والحياة اليوميّة وتموضعهنّ فيها. إضافةً إلى تفاصيلٍ مهمّةٍ تتعلّق بهنّ وبأطفالهنّ.

لن أعود إلى العنف

«لا ما بفكر أبداً ارجع ع سوريا وماني شايفة انو رح ترجع سوريا منيحة وطبعا بيجوز كون. نحنا مجتمعات عنيفة نحنا مجتمعات غاضبة ما عنا احترام للإنسان ما عنا مفهوم الحرية مفهوم الحرية مفقود، كان ناقصنا كتير وزاد الطين بلة بعد 2011. جيل كامل من الأطفال ذاكرتو حرب وقتل وموت. قبل 2011 عشنا بسوريا وما كان فيه حرب وحالة العنف يلي طلعت بعد 2011 هي نتيجة للمرحلة يلي قبلها ويلي ما كان فيها حرب فما بالك هيدون العالم يلي خلقوا وعاشوا بفترة الحرب شو مستنية يطلع منهن.» (روان، أوروبا)

سأعود... ولكن سيختلف الأمر إذا أصبحتُ أمّاً

«رح ارجع عسوريا اكيد وبرايي الجامعة رح تكون طريق الي لكون مؤهلة لفيد اهل بلدي. لهيك بدي ارجع اكيد، برايي كلو حابب يرجع بس يلي أسّس حياة لحالو او يلي عندن ولاد وامنلن حياتهن وبلشوا ولادهن بالمدارس و موفرلهن كل شي وبلد ديمقراطي اكيد ما رح يرجعوا. وانا اذا صار عندي ولاد ما رح ارجع لانو بدي إياهون يتعلموا هون، هون احسن تعليم، رح فكر بولادي.» (ناديا، أوروبا)

«بالنسبة لي لن أعود بسوريا، صار الموضوع متعلق بعائلتي وطفلي، هذا الكلام صعب احكي بس هي الحقيقة أنا بدي طفلي يعيش بأمان، علما انو من حق سوريا علينا نرجع ونعمرها ونشتغل فيها، بس سوريا بدها كتير وقت لحتى توصل لوضع الأمان أو الخدمات الكافية للأطفال، يعني ممكن ارجع بس يكبر ابني، بس حاليا أنا راح اظلمو. للأسف الشباب كمان ما بحس راح يرجعو خاصة اللي بلشو حياتون، ممكن الفئة العمرية الكبيرة بالعمر ترجع.» (نرجس،أوروبا)

قد أعود... لكن سأحمي نفسي أوّلاً

«بالنسبة إلي ممكن جرب بالمستقبل أستقر في سوريا. بس بدي أول شي أحصل على الجنسية، بدي كون تحت حماية بلد أوروبي. ان صار معي أي شيء. ما بعرف اذا راح أتزوج في سوريا أو هون. بدي يكون لأطفالي حقوق، دراسة جيدة، ولغة ممتازة، مشان هيك بصراحة بفضل يكبر أطفالي في دولة أوروبية ومش في سوريا. ماأعتقد انه من الممكن اعيش مع أهلي مرة أخرى، اتعودت على نمط الاستقلالية وبخاف بسوريا يتم اعتبار الأمور التي بالنسبة لي عادية، أمور خاطئة بالمجتمع.» (صباح، أوروبا)

اقتراحاتٌ من النّساء لتحسين أوضاعهنّ

- هناك تخوّفٌ كبيرٌ وقلقٌ حقيقيّ حول العمليّة التعليميّة وتدهورها في معظم المناطق السّوريّة. اقترحت العديد من النّساء إعطاء الأولويّة الأولى لقطاع التّعليم خوفاً من نموّ جيلٍ كاملٍ أمّيّ والنّتائج السّلبيّة من ذلك على الأفراد والمجتمع في الراهن والمستقبل.

- قراءة الاحتياجات من الدّاخل إلى الخارج وليس بالعكس، أي عدم فرض مشاريع ومبادراتٍ تعتمد على وجهة نظر الجهات المموّلة أو المنظّمات الّتي تعمل خارج سوريا، والتّفكير بمشاركة المرأة في هذه المشاريع بشكلٍ واقعيّ مثل وجود رعايةٍ للأطفال، بحيث تستطيع الأمّهات والآباء المشاركة بالتّدريبات أو العمل في المشاريع، أو القيام بمشاريع مستدامةٍ تتناسب واحتياجات ومتطلبات النساء.

- اقترحت العديد من النّساء في مناطق مختلفةٍ قيام المنظّمات المدنيّة بدعم مشاريع تمكينٍ اقتصاديٍّ طويلة الأمد للمرأة والرّجل، كما اقترحت بعضهنّ زيادة المشاريع الّتي تعمل على تمكين المرأة السورية مهنيّاً وتعليميّاً ومعرفيّاً وتساعدها على تأمين فرص عمل، وعدم القيام بمبادراتٍ ومشاريع تُركّز فقط على المرأة، فبعض النّساء يجدن أنّ تمكين الرّجل وخاصة في ظروف الحرب يساعد في عمليّة التّوازن على المستوى الفرديّ والمجتمعيّ.

- ركّزت مجموعةٌ من النّساء على التّمكين الاقتصاديّ والمعرفيّ ثم التّعريف بحقوق المرأة، وعلى عدم حصر أو نسب حقوق المرأة بفكرة كره الرّجل وإقصائه. والقيام بتدريباتٍ توعويّةٍ للرّجل حول حقوق المرأة وندواتٍ حواريّةٍ تجمع الجهتين.

- أهميّة وجود جهاتٍ مدنيّةٍ ترعى النّساء المعنّفات مجتمعيّاً والمطلّقات وعدم قصر الاهتمام فقط بمن فقدنَ أزواجهنّ، وعدم الاكتفاء بجهاتٍ عسكريّةٍ للبتّ في هذه الأمور، وأن تكون دائرة الرّعاية كاملةً، بحيث لا تُترك النّساء في منتصف الطّريق.

- طالبتِ العديد من النّساء بوجود تدريباتٍ أكاديميّةٍ لهنّ، وعدم حصر هذه التّدريبات في دوائر مغلقةٍ تعتمد على المعرفة الشخصية فقط. إضافةً إلى تدريباتٍ طويلةٍ حول مفاهيم العدالة الانتقاليّة والسّلم الأهليّ والنوع الاجتماعيّ.

- اقترحت العديد من النّساء مبادراتٍ تستهدف الحوار وتقبّل الآخر، وأبدين احتياج معظم فئات الشّعب السّوريّ لهذا النّوع من المبادرات، لافتقارنا وعدم ممارستنا لها لسنواتٍ طويلةٍ، ولما سيكون لها من أثرٍ إيجابيٍّ في التّواصل والتّوافق بين بعضنا البعض.

- وجود مشاريع ومبادراتٍ تعمل على الدّعم النّفسيّ للنّساء لتفريغ تعبهنّ المتراكم، وقد اقترحن الدّعم النّفسيّ عن طريق التواصل والاجتماعات والأعمال والتّدريبات المهنيّة والنّشاطات التّرفيهيّة.

- القيام بمبادراتٍ أو دعم مبادراتٍ محليّةٍ للحدّ من ظاهرة الزّواج المبكّر للفتيات في مختلف المناطق السوريّة، عن طريق التّوعية وفرض قوانين صارمةٍ ومراقبة عمليّة التّنفيذ.

- الاهتمام ودعم الوضع الصّحّيّ بشكلٍ عامّ، وخاصّةً ما يتعلّق بالنّساء. وقد تمّ ذكر عدم توفّر خدماتٍ صحّيّة تتعلّق بالنّساء اللّواتي يعانين من السّرطانات بشكلٍ خاصّ ومرضى ألزهايمر في بعض المناطق السوريّة.

استخدامات لاحقة للبحث

يأتي هذا البحث كغيره من الأبحاث والدّراسات في مرحلة يصعب فيها تشكيل أرضيّة للقيام بفعلٍ أو عملٍ جامعٍ أو مستدامٍ يتعلّق بالنّسويّة السّوريّة، لكنّه يبقى ضمن إطار المحاولات لتوثيق تجارب بعض النّساء السوريّات وتحليل الظّروف المحيطة بهنّ في مرحلةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ. وقد تطرّقنا للعديد من المواضيع والمفاهيم الحسّاسة خلال هذا البحث والّتي يستحقّ كلّاً منها أبحاثاً ومبادراتٍ وفعاليّاتٍ مخصّصةً، تسبر في العمق كلّ التفاصيل المتّصلة والمحيطة بها. لذلك نطلب من أنفسنا في منظّمة «نساء الآن» وندعو الأفراد والجهات المهتمّة بشكلٍ عامٍّ استخدام هذه الورقة كمصدرٍ شاملٍ ومبدئيٍّ للانطلاق منها إلى أعمالٍ بحثيّةٍ نسويّةٍ تقاطعيّة، تبحث في كلّ موضوعٍ على حدىً، وتحلّل تداخلاته مع السّياق والهيكليّات الموجودة والمتولّدة في هذا الظّرف من منظورٍ جندريّ حسّاسٍ للنّزاع.

كما يمكن للجهات المدنيّة الفاعلة في المناطق الّتي تمّ فيها مقابلة السّيّدات تطوير العديد من النّقاط والاقتراحات الّتي قدّمتها النّساء، وتحويلها إلى فعاليّاتٍ تتناسب وتطلّعات واحتياجات النّساء على الصّعيد الذّاتيّ والمجتمعيّ في تلك المناطق. وتطوير الحوارات الثنائيّة حول مفاهيمٍ وقضايا عديدةٍ شملتها الفصول الأربعة في هذا البحث، إلى عناوينٍ لحواراتٍ محليّةٍ ضمن استراتيجيّةٍ هادفةٍ بين مجموعات النّساء الرّاغبات في خوض مثل هذه النّقاشات والتّعبير عن الذّات في مناطقهنّ داخل وخارج سوريا، وإنشاء شبكة تواصل عابرةٍ للجغرافية بين هذه المجموعات لتبادل الأفكار والخبرات، وتطوير مهارات الحوار وتبادل الآراء بحدّ ذاتها. كلّ هذا من شأنه أن يقرّب من تباعدنا كنساء سوريّات وقد يرسم بعض الملامح لتضامننا النّسائيّ والنّسويّ الفقير إلى حدّ ما.

الملحق 1: ورقة الموافقة أثناء المقابلات

ورقة الموافقة

اسم البحث: قراءة معمّقة للنساء السوريات حول الراهن والمستقبل والمفاهيم المتعلقة بهما

اسم الباحثة (أو لقبها): .....

قبل البدء بالمقابلة، يجب أن تقرأي شرحاً عن هذا البحث وهدفه، وعن مجريات المقابلة وحقوقك كمشاركة.

هدف البحث والمشاركة

«نحن الآن نقوم بهذه المقابلة التي ستكون مصدراً غنيّاً لبحثنا المتعلّق بقراءة النّساء السوريّات للواقع والمستقبل" وأنّ جميع التّفاصيل الّتي سيتمّ ذكرها ستصبّ في إغناء البحث. إنّ الهدف من هذا البحث هو خلق منصّة أو مساحة للنّساء السوريّات من سياقاتٍ مختلفةٍ للحديث عن تجاربهنّ الشّخصيّة والاجتماعيّة، وإبداء آرائهنّ ومشاعرهنّ وقراءاتهنّ للعلاقات والأوضاع على كافّة المستويات. نريد في هذا البحث أن تعلو أصوات النّساء الّتي طالما تهمّشت وأن نقرأ الشّخصيّ والسياسيّ من منظورهنّ. قد لا يكون هناك نتيجة عمليّة لهذا البحث على أرض الواقع، بل هو جزءٌ من عمليّة تغييرٍ طويلة الأمد، إنّما ملاحظات واقتراحات النّساء ستؤخذ بعين الاعتبار كمصدرٍ رئيسيٍّ لأيّ مشاريع سيتمّ تنفيذها من قبل المنظّمة الرّاعية في المستقبل.»

إنّ المنظّمة الرّاعية لهذا البحث هي منظّمة „النساء الآن" للتّنمية وهي منظّمة سوريّة معنيّة بالشّأن المدنيّ السوريّ مع التّركيز على النّساء كمصدرٍ أساسيٍّ لإنتاج المعرفة، ومصدرٍ أوليٍّ للتّغيير في المجتمع.

سنقوم بعدّة مقابلاتٍ مع نساءٍ سوريّاتٍ في مناطق مختلفة، وستكون مقابلتي معكِ هي إحدى هذه المقابلات. هذه المقابلة لا تعتمد على أسئلةٍ يمكن إجابتها بنعمٍ أو بلا، بل على السّرد والاستماع والنّقاش. لذلك قد تكون مدّة المقابلة من ساعةٍ إلى ساعتين كحدٍّ أقصى.

المخاطر والعواقب من المشاركة

لا توجد أيّ مخاطر أو عواقب متوقّعة من مشاركتك في الدّراسة، إنّما قد تتخلّل المقابلة بعض الحالات الانفعاليّة أو سردٍ لمواقف حسّاسة. الرّجاء التّوقف عن المقابلة عند شعورك بأيٍّ من هذه الانفعالات، أو تجاوز أيّ سؤالٍ قد تجدينه غير مناسبٍ من أيّة ناحية.

السّريّة، ستبقى المعلومات الّتي تمّ جمعها خلال هذه المقابلات سريّة، ولن تكون أسماء المشاركات أو أيّة تفاصيل لها دلالةٍ متاحةً لأيّ شخص أو جهة. سنحتفظ بالملفّات الصّوتيّة إلى الانتهاء من كتابة البحث، وبعدها سيتمّ التّخلّص منها. يمكنكِ إعطاء أيّ اسمٍ لكِ إن كنتِ لا تريدين إظهار اسمكِ الحقيقيّ في التّسجيل.

التّسجيل، سنقوم بتسجيل المقابلة لغرض تفريغ المعلومات وتحليلها. إن وجود التّسجيل يساعدني كباحثة على نقل تفاصيل المقابلة بمصداقيّة. إلّا أنّني لن أقوم بالتّسجيل أو سأقوم بتغيير نبرة الصّوت إن كانت هذه رغبتك.

حماية المعلومات، سيتمّ حفظ المعلومات بشكلٍ إلكترونيّ (ملفّات)، في مكانٍ محميٍّ إلكترونياً، بحيث لا يمكن الوصول إليه إلّا من قبل الباحثات والمنظّمة الرّاعية. لن يتمّ مشاركة هذه المعلومات في وضعها الخام مع أيّة جهةٍ ثالثة. عند الانتهاء من كتابة البحث سيتمّ نشره كي تصل نتائجه إلى أكبر شريحةٍ ممكنة. نضمن عدم ذكر أيّة أسماءٍ حقيقيّةٍ أو تفاصيل دالّة، خاصّةً أنّ الهدف من البحث لا يركّز على تفاصيل فرديّة بل تحليل لمحاور وتقاطعات تجارب النّساء.

نوع المشاركة

إنّ هذه المشاركة طوعيّة، ويجب أن تتمّ وفقاً لموافقتكِ ورغبتكِ. ويمكنكِ إلغاءها قبل البدء فيها لأيّ سببٍ تجدينه مهمّاً لكِ.

الرّجاء التّوقيع كدليلٍ على موافقتكِ وقراءتكِ لكلّ ما سبق.

توقيع الباحثة: ..... توقيع المشاركة: .....

المُلحقات